

مَنِيْبُ الطَّحَّانِ

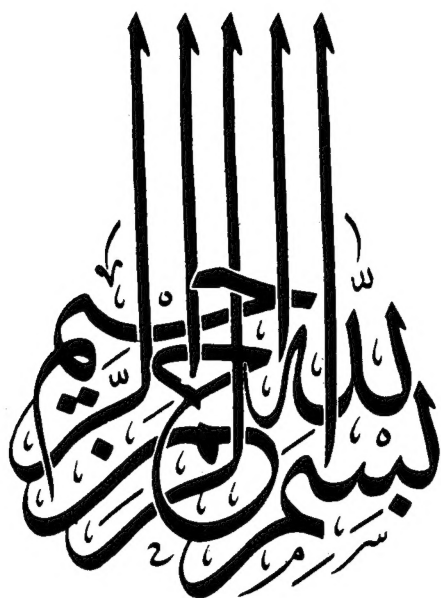
نِدَاءُ الْقُرْآنِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

دَارُ



لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ



نَدَاءُ الْقُرْآنِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناس

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

رسم - عين الدرس - جادة كريمة حدار
ص ب ٣١٤٣ تليفون: ٢٣١٩٦٩٤



تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » - الإسراء / ٩ .
« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » - الأنفال / ٢ و ٣ .

إلى هؤلاء الذين آمنوا بالله وصدقوا برسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أوجه كتابي هذا ممهداً بخمس نقاط :

١ - في كتابي (الإعجاز في القرآن طريق إلى الإيمان) دعوت القارئ إلى قراءة القرآن قراءة واعية ، وملاحظة ما فيه من إعجاز متعدد الوجوه . بعد بيان وجوه الإعجاز الذي أدهش المعاصرين ببلاغته وتنوع أغراضه ، كما أدهش المتأخرين بتطابق آياته مع كثير من المكتشفات العلمية ، وفي عرضه للأحداث التاريخية ، وفي إشاراته إلى الكون ومكوناته ، كانت النتيجة أن مثل هذا الإعجاز ما كان ليصدر عن بشر ، وإنما عن خالق البشر .

بعد ذلك عرضنا صوراً من مخاطبة خالق الخلق إلى بني آدم كلهم ، من مثل قوله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » - الأعراف / ٣٥ .

ثمّ عرضنا صوراً من دعوة الخالق إلى الناس على اختلاف أوطانهم وأزمانهم ، في عدد من الآيات الكريمة ليتعارفوا ، ويتعاونوا ، ويذكروا نعمة الله عليهم . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الحُجُرَات / ١٣ _ .

ثم جاء الخطاب إلى الذين آمنوا ، وهم الناس الذين سمعوا النداء الإلهي وفهموا معناه ، واستجابوا . إلى الذين آمنوا بالله ربّاً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلّم نبياً ، وبالقرآن الكريم منهجاً . خاطبهم بالصفة التي تميّزهم عن بقية الناس الذين لم يؤمنوا ، بالصفة التي تربطهم بالله وبرسوله ، والتي تحرك مشاعرهم للاستجابة والتلبية ، لطلما اعتمد إيمانهم على الإدراك الحسيّ إضافة للفترة التي فطر الله الناس عليها ، وعلى قناعة فكرية تشكلت بدلائل عقلية .

أجل ، تكرّر الخطاب المباشر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً . ليدكرهم بما آمنوا به وصدقوا فليترزموا ، وليتنبّهوا إلى مكملات الإيمان من تقوى ، وتوكّل على الله ، وعزة نفس . . . وليعلموا أن الإسلام ليس بالأقوال والشعارات ، وإنّما هو شعور بالقلب ونظام متكامل ؛ من تربية ضمائر الناس وإصلاح نفوسهم وسلوكهم مع الأسرة والمجتمع ، إلى تقرير حق كل فرد في الحياة وفي الوسائل الضرورية لحفظ الحياة ضمن الأسس التي رسمها لهم ، إلى أن يشمل تطبيقه جميع جوانب الحياة من أخلاقية ، وثقافية ، واقتصادية ، وسياسية ، وغيرها من الأسس التي تساعد على بناء المجتمع القادر على حمل مشعل الهداية ورسالة الحضارة إلى الإنسانية جمعاء ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ _ الأنبياء / ١٠٧ _ .

وقد رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنّه قال : " الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها ؛ قول لا إله إلاّ الله ، وأدناها ؛ إمطة الأذى عن الطريق ، والحياة

شعبة من الإيمان" (١).

٢- هذه النداءات الإلهية اخترتها من كتاب الله عز وجل لتذكير القارئ بما تتضمنه من العلاجات لكل داء من الأدواء التي تعاني منها البشرية عامة ومجتمعاتنا خاصة، ويهدف ربط المسلم بكتاب الله تعالى ربطاً وثيقاً عملياً. وبقصد لفت النظر إلى أشياء خفيت على البعض، ولا ريب أن من يتدبر أي نداء من القرآن ويقبل عليه بالقلب والعمل سيرى فيه من غزارة المعاني ما يحذر من الوقوع في انحراف، أو ما يهدي للخلاص من انحراف قد وقع فيه خطأ أو عمداً، إلى جانب ما فيه من ترغيب بسلوك السبيل القويم، أو ترهيب مما يمكن أن يلحق المؤمن من عذاب في الدنيا قبل الآخرة. وقد روى ابن عمرو في ذم تلاوة الغافلين عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "اقرأ القرآن ما نهاك، فإذا لم ينهك فلست تقرأه" (٢).

((فالقرآن يراد للعمل به، أما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى، وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار. فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ.)) (٣).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا مسعر، حدثني معن وعوف أو أحدهما؛ أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد لي، فقال: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارعها سمعك، فإنه خيرٌ يأمر به، أو شرٌّ ينهى عنه (٤).

(١) صحيح مسلم، ج ١، كتاب الإيمان، باب ١٢، حديث ٣٧/٣٥.

(٢) الجامع الصغير للسيوطي، مجلد ٢، رقم ٦٣٣٣، وقال: أي اقرأ القرآن ما نهاك عن المعصية وأمرك بالطاعة.

(٣) موعظة المؤمنين: ص ١٣٤.

(٤) ذكره القرطبي: ٩٤/٨.

وقال محي الدين بن عربي : ((إذا سمعت الله تعالى يقول : يا أيها الناس ، أو يا أيها الذين آمنوا ، فكن أنت المخاطب ، وافتح له أذن فهمك لما يقول لك في هذا التنبيه ، فكن في قبول ذلك بحسب ما يقول ، إن نهاك الله ، وإن أمرك فافعل منه ما استطعت ﴿ فأتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا ﴾ وقد جاء في الأثر : (يا عبدي إذا تعذر عليك فعل شيء مما أمرتك به فقل : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) .))^(١) .

٣- هذه النداءات الإلهية بعضها اختص المسلمين الأوائل الذين رافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ۖ ۞ ﴾ المجادلة / ١٢ .

وبعضها جاء لمناسبة من المناسبات ، إلا أن فيها من التوجيه العام ما هو مطلوب في كل زمان ، مثل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ۖ ۞ ﴾ الحجرات / ١ . فإذا نظرنا إلى النبي من وجهة أنه كان قائداً للمسلمين ورئيس دولتهم الناشئة وجدنا أن هذا الأدب يجب أن يستمر ويطبق أمام القادة وولاة الأمور ومن في حكمهم . وهذا ما دعاني إلى ذكر أسباب النزول كلما وجدت أن في ذكرها ما يوضح غاية الحكم ويبين سبب التشريع ومراميه ، حتى وإن كانت العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب .

والقسم الأكبر من النداءات ما كان عاماً ومؤكداً أن القرآن ليس كتاباً لعصر بعينه ، وإنما له صفة الديمومة من حيث الزمان والمكان ، ومثاله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ الأحزاب / ٤١ و٤٢ .

٤- مما لا شك فيه أن الإسلام دين يسر وسماحة ، وأن أركان الإيمان والإسلام يمكن استيعابها والالتزام بها دون مشقة أو كبير وقت . إنما الذي يجب أن يدركه كل مسلم أن لكل أسس متممات . فمن اليسر التيمم في حالة المرض وفقدان الماء ، ولكن ليس من اليسر

(١) الوصايا : ص ١٥٥ ، الوصية ٧٢ .

إهمال الفروض والواجبات ، كإهمال الصلاة أو تأخير صلاة العصر إلى وقت الغروب . ولقد عرفنا كيف قام الإسلام على أسس تعبر عما في قلوب الناس من الإيمان بمختلف أركانه وأقسامه ، وتمرّنهم على طاعة الله والتوجه إليه في جميع الأوقات وسائر الأحوال ، فكانت هذه الأسس هي أركان الإسلام التي تقوم عليها دعامة الشريعة الإسلامية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله الهادي محمد صلى الله عليه وسلّم .

وتلخص هذه الأركان في أمر واجب هو الإيمان الثابت في القلب بوحدانية الله جلّ وعلا المؤيد ذلك بشهادة اللسان وخضوع الجوارح . وقد جعل الله تعالى هذه الأركان محكاً لا اختبار مدى إيمان عباده ، فمن أنقص ركناً منها أو أهمله فكأنما عمل على هدم الإسلام وسعى لتقويض بنائه . لذلك يعدّ رفض الخضوع لله خروجاً على الإسلام وهدماً للإيمان مهما زعم الرافض من معرفة ويقين .

((لقد كان إبليس يعلم أن الله واحد لا شريك له ، وكان يعلم أن مصيره إليه يوم يبعثون . بيد أنه لما صدر إليه الأمر أن يسجد ، قال مستكبراً جاحداً : لا . . . عُذَّ كافراً ، ولم تشفع له معرفته بوحدانية الله ، لأن المعرفة المجردة عن مبدأ الخضوع المطلق لرب العالمين لا وزن لها .))^(١)

إذن أركان الإسلام أشبه ما تكون بصفة يقصد منها علاج النفوس وترويضها على الطاعة ، ومراقبة الله والخضوع لأحكامه . فإذا نقص عنصر أو أكثر من تركيب العلاج قد يؤدي إلى سلب منفعته بالمرّة .

وهناك آيات يدور محورها حول ضرورة تدبر آيات القرآن المشيرة إلى سنن الكائنات والاتعاظ بما فيها والعمل بمقتضاها ، والتحذير من إهمالها واتخاذها لمجرد التلاوة والبركة بدلاً من الاستفادة بهديها واستنباط الأحكام والعبر منها . وما أجدر الإنسان المؤمن أن يتحلّى بما جاء فيها وهو يعلم أن الله عز وجلّ لم يأمرنا إلاّ بما فيه الخير لنا ، ولم ينهنا إلاّ عما

(١) عقيدة المسلم ، محمد الغزالي ، ص ١٥٦ .

فيه الفساد والشر في الدنيا والآخرة . فمن اتجه من أداء الفرائض نحو كمال العبادة فاز بالدرجات العلى من جنات النعيم . أما من لم يُخضع نفسه لأوامر الله فأولئك الذين قضى الله في دستوره أنهم لا يؤمنون ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ _ الأنعام/ ٢٠ _ خسروا أنفسهم بعدم التحكم فيها وإخضاعها لأوامر الله والاهتداء بهديه . وهذا إعلان عن عدل الله ، فهو لم يفرض الإيمان فرضاً على عباده ، ولم يحكم بحرمان أحد منه رغبة في إضلالهم ، بل إنه تعالى مهّد للناس طريق الخير والشر ، ونههم إلى ذلك ، وقضى بعدم إيمان كل من حكمته نفسه وزينت له شهواتها وأوردته موارد الخسران .

إذن من متممات الإيمان الاستجابة لنداءات الله الموجهة في كتابه الكريم للذين آمنوا ، وفيها ما يوضح معالم الطريق لأن خالق البشر أعلم بما فيه صلاح البشر وفلاحهم . وحين أنزل القرآن علم أن شريعته متعاصرة مع كل زمن ، متفاعلة مع الواقع ، تصف العلاج الحاسم لكل داء من أمراض المجتمع .

وليس صحيحاً ما يشيعه بعض الغفلة أن استجابة المؤمن لنداءات الخالق في الزمن الحاضر تعترض طريق النضال ضد أعداء الأمة في الداخل والخارج ، بل العكس هو الصحيح ، فانتصار المسلمين في غزوة بدر كان في رمضان ، ولم يقف الصيام حاجزاً دون القتال والنصر . ففي استجابة المؤمن للمنهج القرآني خدمة لدينه ودنياه ، فيه خلاص من كثير من الهموم والاستغلال والخوف ، وفيه خدمة لشخصه ، ولأسرته ، ولمجتمعه ، لأن الدين لمثل هذه التوجهات يدعو . وما كان المؤمنون في العهد الأول من رسالة الإسلام إلاّ ساعين للذود عن كرامتهم وكرامة أمتهم ووطنهم من تأمر المشركين ، ومن تأمر الأعداء _ واليهود خاصة _ على وحدتهم ورسالتهم الإنسانية . وما منعهم ممارستهم للشعائر الدينية عن الاستجابة لنداء (وامعتصماه) ، ولا حجزت السلطان صلاح الدين وأمثاله عن الاستجابة لنداء (وإسلاماه) . وإنما الانغماس في الملذات ومجالس اللهو والسمر أكثر إعاقة عن الاستجابة لنداء الواجب الوطني والقومي . بل هي أكثر استجابة لنداء الشيطان وجنوده من الطواغيت المتأمرين على وحدة الأمة العربية والإسلامية .

٥- وأخيراً ألحقت بكل نداء توضيحاً اعتمدت فيه على ما يجمع بين المأثور والمعقول ، مستمداً من تفاسير موثوقة ، قديمة وحديثة ، محاولاً عدم التأثير بأي مذهب ، مشيراً إلى أماكن الخلافات الفقهية أحياناً تسهيلاً للقارئ الراغب بالرجوع إلى التوضيحات المرادة في كتب الفقه الميسرة .

وتعرضت إلى أسباب النزول عند الضرورة محاولاً اختيار أقرب الروايات التي اتفق عليها عدد من المفسرين والعلماء . وفي مقدمة ما استفدت منه في البيان : التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ، وتفسير آيات الأحكام للشيخ محمد علي السايس ، وتفسير ابن كثير ، وتفسير القرطبي ، سائلاً المولى أن يوفقنا إلى سماع نداء الله والعمل بموجبه في كل مناحي الحياة ، لأن الله عز وجل لا ينادينا إلا بما يحقق سعادتنا .

دمشق ١٦ / ذو القعدة / ١٤٢٠ هـ

٢٠ / شباط / ٢٠٠٠ م

منيب الطحان

النداء الأول: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ، وَقُولُوا انْظُرْنَا ، وَاسْمَعُوا
وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ . مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

البقرة/ ١٠٤ و ١٠٥ _

إنَّه النداء العلوي للذين آمنوا ، نداء ينههم إلى نوعين من سيئات الإسرائيليين
ومطاعنهم الكثيرة الموجهة ضد العرب والمسلمين :

- النوع الأول : ما كان موجهاً إلى الإسلام في شخص الرسول صَلَّى الله عليه وسلَّم .
وذلك أنهم كانوا يقولون له : (راعنا) . « والأصل في كلمة (راعنا) من المراجعة ، وهي
الإنكار والإمهال ، أو الرعاية ، وهي النظر في مصالح الإنسان . وقد حرّفها اليهود ،
فجعلوها كلمة مسبة مشتقة من الرعونة وهي الحمق ، ولذلك نهى عنها المؤمنون . »^(١) .

وقيل هي كلمة عدوانية ، أصلها (راعينو) أي شرير ويقصدون بها الخط من قدر
النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم ، دون أن يشعر الصحابة بذلك .

« قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء : وذلك أن العرب كانوا يتكلمون
بها ، فلما سمعهم اليهود يقولونها للنبي صَلَّى الله عليه وسلَّم أعجبهم ذلك . وكان (راعنا)
في كلام اليهود سباً قبيحاً ، فقالوا : إِنَّا كُنَّا نَسُبُّ مُحَمَّدًا سِرًّا ، فَالآن أَعْلَنُوا السَّبَّ لِمُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ
مِنْ كَلَامِهِ . فَكَانُوا يَأْتُونَ النَّبِيَّ صَلَّى الله عليه وسلَّم فيقولون : يَا مُحَمَّدُ رَاعِنَا ، وَيَضْحَكُونَ
فَفُطِنَ بِهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ وَكَانَ عَارِفًا بِلُغَةِ الْيَهُودِ ، وَقَالَ : يَا أَعْدَاءُ

(١) صفوة التفاسير: ٨٥/١ .

الله عليكم لعنة الله ، والذي نفس محمد بيده ، لئن سمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه ، فقالوا : أستم تقولونها ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا . ﴾ الآية^(١) .

﴿ وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ أي قولوا بدلاً عنها المعنى المقصود حقيقة منها وهو : انظرنا يا رسول الله ﴿ واسمّعوا ﴾ ما أمرتم به ﴿ وللكافرين ﴾ الذين يقصدون النيل من مقام الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ عذاب أليم ﴾ إذا لم ينتهوا عن ذلك سرّاً أو علناً .

- النوع الثاني من سيئات بني إسرائيل ومطاعنهم ؛ ما كان موجّهاً إلى الإسلام في شخص أتباعه ، وذلك أنهم كانوا يتظاهرون لهم بالودّ ، ويقولون : ودنا لو كان دينكم خيراً مما نحن فيه لتبّعناه . فحذرهم الله منهم بقوله : ﴿ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ . ويجمع القرآن الكريم بين أهل الكتاب والمشرّكين في الكفر ، وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة ، وكلاهما يضمّر للمؤمنين الحقد ، ولا يودّ لهم الخير ، وأعظم ما يكرهونه لهم هذا الدين . والأمثلة والبراهين على هذا الكره أكثر من أن تُحصى . ومنها هذه الإشارات السريعة التي تذكّر القارئ بأفعالهم وتؤكد أن الله عزّ وجلّ نبّه عباده لما فيه خيرهم . فهم الذين واجهوا الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى لقيام الدولة العربية الإسلامية . والذي ألّب الأحزاب على المسلمين ، وجمع بين يهود قريظة وغيرهم ، وبين قريش في مكة وبين القبائل الأخرى في الجزيرة يهودي . والذي ألّب العوام ، وجمع الشراذم ، وأطلق الشائعات في فتنة عثمان رضي الله عنه وما تلاها من النكبات يهودي . . والذي كان وراء إثارة النعرات القومية لتفكيك الدولة العثمانية ، ووراء الانقلاب على يدي أتاتورك يهودي . وهكذا سائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على العرب والمسلمين في الأرض المحتلة من فلسطين ، وفي جنوب لبنان ، وفي الجولان . حتى الطائرات الأمريكية والبريطانية التي دمّرت العراق ، ولا تزال تواصل اعتداءاتها على

(١) التفسير المنير، ج ١، ص ٢٥٥ .

شمال العراق وجنوبه ، إنّما دافعها الأوّل وقاية العدو الصهيوني وتأمين مصالح حلفائه وحماته .

يقول (ألفريد كانتول سميث) من مؤرخي الغرب ، مؤلف كتاب الإسلام في التاريخ : « إنّ الغرب كان ولا يزال يخاف القوة المعنوية الكامنة في عالم الإسلام الذي تجمعه وحدة التوحيد الخالص ، يخاف هذه القوة ويخشأها ، ويعمل منذ سنوات بعيدة على سحقها وتمزيقها ، وبعث الخلاف والفرقة والصراع والخصومة والتناحر بين أجزائها»^(١) .

من أجل هذا كانت حملة الإبادة من الصرب ضد مسلمي البوسنة والهرسك . ووقفت الدول الكبرى متفرجة على حملة التطهير العرقي . وحين طلبت البوسنة من الأمم المتحدة المساعدة في فرض سيطرتها على أراضيها «أعاد وزير الخارجية الأمريكي _ جيمس بيكر _ تأكيد سياسة حكومته قائلاً : لن يتم استخدام قوات الولايات المتحدة بصورة منفردة ، وكما قلنا من قبل : إنّنا لسنا رجل شرطة العالم ولا يمكن أداء هذا الدور . . .»^(٢) . فلماذا تدخلت الولايات المتحدة بعد ثلاث سنوات ، بعد قتل عشرات الألوف من المسلمين وتشريد السكان ؟ فقد اختفى من على وجه الأرض الآلاف « وفي زفونيك كان يعيش (٤٩) ألف مسلم ولم يتبقّ منهم شخص . وهكذا محوا خمسة قرون من الحياة الإسلامية والثقافة والتقاليد الإسلامية هناك . . . ألم يكن بإمكان الولايات المتحدة وحلفائها المساعدة قبل القتل والتدمير والإبادة ؟ . . كان ذلك وصفاً يلائم أهواء قادة الصرب من المتعصبين في البوسنة . . .»^(٣) .

نفس الأعمال الوحشية تكرّرت حين هبّ مسلمو كوسوفا للتحرر من ظلم الصرب وتعصبهم القومي والديني .

(١) المسلمون في يوغوسلافيا ، محمد قاروط ، ص ٥٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

(٣) انظر : نزاعات البلقان والتطهير العرقي ، محمد قاروط ، ص ٢١٣-٢٢٣ .

وهكذا نرى التعاطف والتكامل بين اليهود في إسرائيل وحلفائهم في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها لضرب العرب والمسلمين . فإذا سمعنا الله تعالى يقول : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ فإننا ندرك طرفاً من حكمة الله تعالى في تقديم اليهود على الذين أشركوا .

ثم يقول عزّ من قائل : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، فإذا اختص بها محمداً صلى الله عليه وسلم والمؤمنين برسالته ، فقد علم سبحانه أنهم أهل لهذا الاختصاص .

﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ وليس أعظم من نعمة النبوة والرسالة . وفي هذا التلميح ما يحرك في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل . وهذا الشعور ضروري للوقوف في وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها _ ويقودها _ اليهود لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين .

أخيراً ومما دل عليه النداء المذكور : « ١ - تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغضب من قدر النبي صلى الله عليه وسلم .

٢ - التمسك بسد الذرائع وحمايتها . وقد دلّ على هذا الأصل الكتاب والسنة . والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في الممنوع . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغْيًا وَعِلْمًا ﴾ _ الأنعام / ١٠٨ _ منع من سبّ آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك .

ومن أمثلة سد الذرائع قوله صلى الله عليه وسلم : " إنَّ من الكبائر شتم الرجل والديه " قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : " نعم ، يسبُّ أبا الرجل ، فيسبُّ أباه ، ويسبُّ أمّه ، فيسبُّ أمّه " ^(١) .

(١) انظر تفسير القرطبي للآية ١٠٤ / البقرة . والحديث متفق عليه ، أنظر : صحيح مسلم (٩٠) .

و مما يدل عليه النداء ؛ تجنب استخدام الكلمات أو المصطلحات التي يردها أعداء الأمة قبل التأكد من معانيها المقصودة وأهدافها ، كما نهانا عن استخدام كلمة (راعنا) . فنحن نسمع أحياناً كلمات تستخدمها وسائل الإعلام المعادية للعرب والمسلمين ، فتردها وسائل الإعلام العربية حتى تصبح كلمات متعارف عليها ، مثل نعت المجاهدين بالمخربين ، والمقاومة بالإرهاب . . وأخيراً تعبير (العولمة) الذي أخذ عدد من الباحثين العرب يردده وكأنه التعبير الذي لا يراد به القضاء على ما تبقى لدينا من إيمان وإسلام ، أو عروبة وتراث فبعضهم يرى في العولمة عملاً إنسانياً مشتركاً ، وإذا كان الأمر كذلك فهي ليست بشيء جديد ، فمنذ خلق الله الإنسان وهناك حاجات تربط المجتمعات الإنسانية بعضها ببعض من خلال علاقات إنسانية متبادلة بأنماطها الإيجابية مثل التعاون والتكامل ، والسلبية مثل الحروب . ولكن الآن ظهرت (العولمة) بصور جديدة ، ففي الواجهة عولمة اقتصادية تنطلق من حرية التجارة وحرية نقل السلع وإلغاء الرسوم الجمركية ، وهذه إجراءات كلها ذات أثر سلبي على الدول النامية ، لتمتع الدول الصناعية المتقدمة بتطور علمي وتقني ، أتاح لها أن تنتج سلعاً عالية الجودة لن تستطيع الدول العربية ومثيلاتها من الدول النامية أن تضاهيها إنتاجياً ، ومن هنا سيحدث ركود في الإنتاج المحلي العربي ، يقابله رواج للإنتاج العالمي .

ولكن هل نقف من الدعوة المذكورة موقفاً سلبياً ؟ أم علينا أن نوضح أن الإسلام أول من دعا إلى الانفتاح على العالم أجمع ، فالله سبحانه وتعالى لم يرسل محمداً إلى العرب فحسب بل إلى الناس جميعاً بدليل قوله تعالى : ﴿ وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ ، وفي هذا محاولة لإعطاء الإنسانية فرصة للتقارب والتكامل .

« لا يمكن لمتتبع منصف إنكار الدور الهام الذي لعبه العرب في ميدان العلاقات الدولية بدءاً من ظهور الإسلام في الجزيرة العربية على صورة رسالة سماوية حملها إلى الإنسانية جمعاء النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم ، وتولى حملها وحمايتها من بعده خلفاؤه من العرب والمسلمين . وللإسلام نظرة للعلاقات الدولية تختلف في أساسها

عن تلك التي يأخذ بها القانون الدولي الوضعي . فالإسلام أصلاً يهدف إلى توحيد بني البشر في ظل نظام قانوني واحد هو الشريعة الإسلامية . فالشريعة الإسلامية موجهة للناس كافة ، دون تمييز على أساس الأصل أو العرق أو اللغة . والشريعة الإسلامية خلافاً لكل شريعة سابقة لها لم تكن ديناً فحسب بالمعنى الذي يفهم به الدين ، بل أنها أيضاً نظام قانوني وبعبارة أخرى هي لا تنظم علاقة المخلوق بالخالق فحسب ، بل تنظم في الوقت نفسه علاقة المخلوقات فيما بينهم وعلى مختلف المستويات الاجتماعية التي يوجدون فيها فهي إذن شريعة تحكم مظاهر النشاط الإنساني ، ومستمدة في أصولها الرئيسية من عند الله . فهي كما يقرر فقهاؤها أعدل الأنظمة القانونية وأفضلها ، وهي (نظام خالد يحكم البشر إلى يوم يبعثون) .^(١)

هذه عالمية الإسلام ، أما العولة الجديدة فتتحرك باتجاه خلق قوى مسيطرة في مواجهة قوى أخرى وتصفية فئات مجتمعية معينة ، وخلق فجوة أكبر بين الطبقات المحرومة والطبقات شديدة الثراء ، وبالتالي بين الدول المتقدمة وتلك التي لا تتمكن من مواكبة الركب فتزداد ضعفاً وتبعية . فالمطلوب اليقظة إلى كل تصرفات الغرب (وأقصد بذلك الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاء الصهيونية المعادية للعرب والمسلمين) التي لا تريد أن ينزل علينا من خير ، كما وصفها النداء أعلاه . إنها اليقظة التي تنقلنا من دور المراقب والمتفرج أو التابع إلى دور التغيير نحو الأفضل ، وهو دور كان حاسماً في الماضي ، ولا بد أن يكون كذلك في المستقبل إن شاء الله و تمَّ تدبُّر نداء القرآن الكريم .

(١) المدخل إلى القانون الدولي العام وقت السلم ، د . محمد عزيز شكري ، ص ١٨ .

النداء الثاني : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . ﴾
- البقرة / ١٥٣ -

بعد أن أوجب الله عزّ وجلّ على عباده المؤمنين ذكره وشكره بتوحيد الربوبية وعدم الشرك به ، كان أول توجيه لهم هو الاستعانة بالصبر والصلاة على تكاليف هذا الدور العظيم ، والاستعداد لما قد يلاقيه المؤمن من نقص في الأموال والأنفس والثمرات والخوف والجوع لإقرار منهج الله وربط قلوب هذه الأمة بالله تعالى ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا ﴾ على قضاء مصالحكم وبلوغ أمانيتكم بأمرين أساسيين هما : الصبر ، والصلاة .

أولاً - الصبر : الصبر على تحمل كل ألم نفسي وجسمي باعتباره من سنن الله تعالى وقد قال بعض الحكماء : (الصبر يكون على أشياء كثيرة ، من أبرزها :
- الصبر على شهوات النفس ورغائبها ، وأطماعها ومطامحها ، وضعفها ونقصها ،
وعجلتها وملالها من قريب .

- الصبر على شهوات الناس ونقصهم ، وانحراف طباعهم وأثرتهم ، وغرورهم والتوائهم) . « فإن بعض (المؤمنين) قد لا يجد حرجاً في أن يهمل عمله ، ويكذب ، وينافق ، ويظلم الآخرين ، ويأكل أموال الناس بالباطل ، ويدمر ثروات المجتمع ، ويمارس أعمالاً منكراً أخرى مما لا تتفق مع قيم الدين الذي يؤمن به ، إنه قد لا يجد في ذلك أي حرج ، بالرغم من أنه يمارس الشعائر الدينية ، بل إنه قد يفلسف الآثام التي يرتكبها ، ويلوي أعناق النصوص الدينية لكي يبرر آثامه دينياً . وليس لذلك كله من تفسير سوى أن الموازين لدى ذلك البعض من (المؤمنين) قد اختلّت ذلك الخلل الذي يؤدي بدوره إلى

تدهور المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وبيئياً. «^(١). وهذا ينقلنا إلى نوع آخر من الصبر يرتبط بهذه الصور :

- الصبر على أقوال وأعمال المنافقين : « الذين يحاربون الإسلام باسمه ، ويكيدون له بسلاحه ، ويتلاعبون بما فيه من أحكام باسم الإصلاح والمرونة والتمسك بروح التشريع ، ويستخرجون من الفتاوى الملفقة المصطنعة تحقيقاً لأمانهم وتقرباً إلى أسيادهم وأولياء نعمتهم »^(٢).

وربما تفتحت في عصرنا ، عصر انتشار وسائل الإعلام والاتصالات الحديثة ، والتي اقتحمت كل بيت تقريباً ، أبواب جديدة من المفساد والمكارة . فلم تعد تتحدى مشاعر المرء الأحداث المحلية فقط ، بل اقتحمتها الأحداث العالمية بخيرها القليل وشرها الكثير . فأصبح يرى الطغيان في العالم من الدول الكبيرة على الدول الصغيرة ، واعتداءات القوى الباغية على الشعوب المستضعفة . ويروجّ لمثل هذه الأعمال أعداء من أصحاب الشر والباطل . يرى الإنسان ويسمع كيف تروجّ بعض وسائل الإعلام للباطل والشرور ، وتفسد مفاهيم الخير والحق والجمال . فيتألم المؤمن لما يصيب أخاه في الإنسانية ، ويعتصره الألم حين يرى الشرّ يتججّع ويمنع الخير أن ينمو خوفاً من أن يحمل نموّ الحق خطراً عليه ، فيحاول قتل الحق وخنقه بالقوة . ومن ثم لا بدّ للنفس الأبية ولصاحب الحق من الجهاد دفاعاً عن حقه ، ولا بدّ له من الصبر على تحمل هذه المصاعب حتى لا ينهار . وأمام هذه الانفعالات الكثيرة التي تنتاب المؤمن ألماً وحسرة على ما يحدث ، ويرى أن المدافع عن عقيدته وأرضه يوصم بالإرهاب ، ويلاحق من عدوّه في الداخل والخارج ، وينهض لحربه الطغاة المستكبرون والمستهترون المنحلّون . وأحياناً ينقلب عليه القريب والصدّيق إذا لم يخضع للغاصب والمراوغ ، رغم ما يحاوله صاحب الحق من سلوك طريق العقل والسلم . وإذا كان المستمع

(١) مدخل إلى نظرية الأمن والإيمان ، م . عبد الوهاب المصري ، ص ٢٣٠ .

(٢) فقه السيرة ، د . محمد سعيد رمضان البوطي ، ص ٤٨٤ .

وإنّما تنال درجة الصبر في المصائب بترك الجزع والمبالغة في الشكوى . . ولا يُخرجه عن حدّ الصابرين توجّع القلب ولا فيضان العين بالدمع ، لأنّ ذلك مقتضى البشرية . . .»^(١) .

ولكن حين يطول الأمد ، ويشقّ الجهد ، قد يضعف الصبر ، فيأتي المعين الثاني الذي لا ينضب :

ثانياً) - الصلاة ؛ باعتبارها هي التي تصل الإنسان الضعيف بالقوة الكبرى ، يستمد منها العون حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة ، ويثقل عليه الاستقامة في الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع . وقد فتح الله تعالى لعباده باب الدعاء على مصراعيه ، ووعدهم بإجابة الدعاء ليكون وسيلة إلى دوام ذكره والرجوع إليه . ورد في الصحيح : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يدعوله بدخول الجنة ، فقال له : "أعني على ذلك بكثرة السجود"^(٢) .

«و لدوام الصلة بين الله وعباده عن طريق الدعاء فرض الله عليهم الصلاة في اليوم واللييلة خمس مرات ، بيّنها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وجعل الزيادة من سنّة قربة إليه تعالى ، لما في ذلك من الذكر الذي دعا إليه سبحانه بقوله : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ _ البقرة / ١٥٢ _ . وتدل الصلاة على منتهى الخضوع والطاعة ، وتعبّر عن الإحساس بالحاجة إلى المعبود ، لأنها ليست مجرد أقوال وأعمال ظاهرة فحسب بل لابدّ أن تكون منبعثة من القلب ، معبرة عما يخالج النفس من إيمان بالله ، وخوف منه ، ورجاء لما عنده من التأييد»^(٣) .

(١) موعظة المؤمنين ، ص ٤١٦ و ٤١٧ .

(٢) فيض القدير ، ٧٨٧٧ ، والنسائي ، كتاب الافتتاح ، فضل السجود .

(٣) أسمى الرسائل ، عبد الحميد الخطيب ، ص ٣٥٨ .

هنا تبدو قيمة الصلاة ، إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والمولى الرحيم الباقي وليكن في علمنا أن الصلاة تنشئ أيضاً صلة بين الفرد والمجتمع بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ _ العنكبوت / ٤٥ _ ، أي تُطَهِّرُ نفسية الفرد من البواعث إلى إيقاع مثل هذه الأمور في المجتمع .

كما أشار القرآن الكريم إلى ثمرة أخرى للصلاة ، هي القضاء على نوازع الأثرة التي فطر الإنسان عليها . من هنا كان رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم إذا حزبه أمر (أغمّه) فزع إلى الصلاة ، وكان يقول : "أرحنا بها يا بلال" ^(١) ، ويكثر من الصلاة إذا حزبه أمر ليكثر من اللقاء بالله . وقد قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم : " جُعِلَتْ قَرَّةٌ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ " ^(٢) .

بعد أن بيّن الله تعالى أهمية الاستعانة بالصبر والصلاة للقيام بالدور الذي خلق الإنسان من أجله قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ وهم الذين جُبِلَتْ نفوسهم على تحمل الآلام والمصاعب ، باعتبارها ليست كلها صادرة عن سوء تصرفاتهم . ومع ذلك فإن العبد حين يدعو الخالق لكشف ضرر أصابه ، أو يدعوه للشفاء من مرض مع الأخذ بأسباب التداوي منه عن طريق ما أودعه الله في العلاجات من خواص ، فإن الله ييسره بقوله : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ بشرط أن يأتي بحقيقة الصلاة لابصورتها ، وليقل : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

(١) زيادة الجامع الصغير ، حرف الياء ، ٤١٣٦ . وأبو داود : ٤٩٨٥ .

(٢) انظر : الجامع الصغير للسيوطي : ٣٥٩٣ و ٣٦٦٩ .

النداء الثالث: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .
البقرة/ ١٧٢ و ١٧٣

إنه النداء العلوي للذين آمنوا ، نداؤهم بالصفة التي توحى إليهم أن يتلقوا الشرائع من الله وحده ، وأن يأخذوا عنه الحلال والحرام . ويذكرهم بما رزقهم ، فهو وحده الرازق ، ويسبح لهم الطيبات مما رزقهم ، فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أي اطعموا من حلال الرزق الذي أحلناه لكم في هذه الحياة ، ولا تحرموا شيئاً مما أحلناه لكم كما حرمت بنو إسرائيل البحائر والسواحب وما إليها ، إلا إذا جاء نص على التحريم في القرآن وما أوضحه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبذلك يشعرهم الخالق الكريم بأنه لم يمنع عنهم طيباً من الطيبات مادام عن طريق الكسب الحلال . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ _المؤمنون/ ٥١_ فأمر بالأكل من الطيبات قبل العم . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ _البقرة/ ١٨٨_ . والآيات الواردة في الحلال والحرام كثيرة ، ومجالها كتب الفقه . إنما أشير هنا إلى أن المال إنما يحرم لصفة في عينه كالخمر والخنزير ، وإما يحرم لخلل في جهة إثبات اليد عليه ، كأن يؤخذ من غير مالكة أو قهراً . فالأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء . فقد روى أبوهريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ، ثم ذكر

﴿وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾ سواء ذكي أو مات حتف أنفه ، لأنه ضار في كلتا الحالتين ، ولا سيما في البلاد الحارة^(١) . ولئن جادل بعض المستكبرين بأن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت بحيث لم تعد الديدان الشريطية وبويضاتها مصدر خطر ، فقد نسوا أن علمهم قد احتاج إلى أكثر من ألف عام ليكشف آفة واحدة ، فمن الذي يجزم بعدم وجود آفات أخرى لم يكشف بعد عنها .

﴿وما أَهْلٌ لغيرِ الله به﴾ أي سمي عليه عند الذبح لغير الله . وهذا حرم لعلة روحية تنافي سلامة القلب وطهارة الروح . فقد حرص الإسلام على أن يكون التوجه لله وحده لا شريك له . ومع هذا فالإسلام يحسب حساب الضرورات ، فيبيح فيها المحظورات ، ويحل المحرمات بقدر ما تنتفي هذه الضرورات ، فقال : ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ في الأكل وإنما لم يجد ما يسد به رمقه إلا عن طريق ما حرّمه الله ، فإذا تناول منه غير قاصد به العصيان ، وأخذ منه بحسب الضرورة التي ألجأته ﴿فَلَا إثمَ عليه﴾ في الأكل لأن التعرّض للموت بالجوع أكثر تحقّقاً من الموت بأكل الميتة ، ولأن الأكل في حال الاضطراب لا يدلّ على تعمّد المعصية . ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن خارت قواه وأشرف على الهلاك من الجوع ، فأكل لدفع ضرر أشدّ . وهذا من رحمة الله على عباده لينفي عنهم الحرج .

«دلت الآية على : ١- إفادة الحصر ، فظاهرها إثبات التحريم ، ونفيه عما عداه . ويؤكد ذلك ما جاء في الآية (١٤٥/ الأنعام) المذكورة أعلاه . وهذا الظاهر يعارضه أحاديث كثيرة وردت في تحريم السباع والطيور والحمير الإنسية والبغال . فقد ورد عن أبي ثعلبة الخشني أنه قال : (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع)^(٢) . ولما كان هذا التعارض خلاف بين الفقهاء ، وخلاف حول كل نوع من الحيوان ؛

(١) أوضحنا في كتابنا (الإعجاز في القرآن) كيف كشف العلم الحديث أضرار لحم الخنزير على سلامة الإنسان ص ٥٧-٦٠ .

(٢) رواه البخاري برقم ٥٢٠٧ .

المائي ، والبري ، والبرمائي ، (يمكن الرجوع إلى ذلك في كتب الفقه).

٢- الحكمة في تحريم ما ذكر: فالميتة لاستقذارها، ولما فيها من ضرر، لأنها إما أن تكون قد ماتت لمرض أفسد تركيبها، وإما لسبب طارئ، فأما الأولى فقد خبث لحمها وتلوث بجراثيم المرض، فيخاف من عدواها ونقل مرضها إلى أكلها. وأما الثانية فلأن الموت الفجائي يقتضي بقاء المواد الضارة في جسمها. وأما الدم المسفوح فلقدارته وضرره أيضاً. وأما لحم الخنزير فلأن غذاءه من القاذورات والنجاسات فتقدر لذلك، ولأنه يحمل جراثيم شديدة الفتك، وظهر أيضاً أن المتغذي من لحم الخنزير قد يكتسب من طباع ما يأكله . . . وأما ما أهلك به لغير الله فتحريمه لحكمة مرجعها إلى صيانة الدين والتوحيد»^(١).

(١) تفسير آيات الأحكام: ١/ ٤٣ و ٤٧.

النداء الرابع: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ؛ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ
وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ، وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ، فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ
بِالمَعْرُوفِ ، وَأَدِّاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ
اعْتَدَى بِعَدْوٍ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي
الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ﴾

البقرة/ ١٧٨ و ١٧٩ _

إن أحكام الشريعة الإسلامية بعدلها القويم ومبادئها الشاملة تدور حول صيانة
الضرورات الأساسية التي لا يستطيع أن يعيش الناس بدونها . وقد حصرها أئمة الاجتهاد
وعلماء أصول الفقه بخمسة مقاصد أساسية وسموها : الضروريات الخمس ، أو الكليات
الخمس اللازمة لتأمين مصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة ، وهي حسب الترتيب التنازلي في
الأهمية ؛ الدين ، فالنفس ، فالعقل ، فالنسل ، فالمال . وقد وضعت الشريعة في سبيل
الحفاظ على هذه الكليات عقوبات زاجرة لكل من يتعدى عليها ، أو ينتهك حرمتها .
ولحماية حق الحياة جاء هذا النداء الإلهي معلناً مبدأ المساواة في الدماء وفي العقوبة ، فكان
بمثابة إعلان حقيقي لميلاد الإنسان (أو حقوق الإنسان) ، إذ لم تسبقه شريعة تعترف بهذه
المساواة بين النفوس . بل لعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا أقررنا أن الشريعة الإسلامية هي
الشريعة التي تهدف قبل كل شيء إلى حماية حقوق الإنسان في الدارين . فالخالق الأعظم
كرم ابن آدم وفضله على العالمين ، والناس سواسية كأسنان المشط (لا فضل لعربي على

أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى^(١) ، فكل الناس لآدم وآدم من تراب ، وحقوق المرء في الحياة والكرامة والسعادة مصونة لا يجوز التعدي عليها .

« ولعل التاريخ خير مصداق لهذا ، إذ ما يزال يردد صيحة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أمير مصر حين أهان إنسانا (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) . كذلك بدأ اهتمام التشريع الوضعي بحقوق الإنسان منذ الثورتين الكبيرتين في أمريكا وفرنسا وانتقلت الدعوة إلى حماية حقوق الإنسان من السنة الأنبياء والفلاسفة والحكام إلى نصوص مكتوبة تنفذها سلطة الدولة أو الدول الملتزمة بها . غير أن الالتزام بحماية هذه الحقوق لم يصبح دولياً بالمعنى الصحيح إلا بنصوص ميثاق الأمم المتحدة . فللمرة الأولى أصبح للإنسان حقوقاً أساسية يصونها القانون الدولي . . . وفي أواخر عام ١٩٤٨ تم وضع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، ويتضمن نوعين رئيسيين من الحقوق المعترف بها للفرد ؛ أولها الحقوق السياسية والمدنية ، وثانيهما الحقوق الاقتصادية والاجتماعية »^(٢) .

إلا أن إعلان الله تعالى الذي طبقه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم منذ ألف وأربعمائة عام ، ومن سار على نهجه ؛ إعلان يستمتع كل فرد فيه بحق المساواة في التحاكم إلى شريعة واحدة وقضاء واحد ، وفي المقاصة على أساس واحد وقيمة واحدة ، فلا يعتدي ظالم على مظلوم ، ولا يستبد قوي بضعيف ، ولا يتحكم غني بفقر ، وإنما الكل أمام الحق سواء فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله رباً عادلاً وحكيماً ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي فُرضَ عليكم ، ولزم عند مطالبة صاحب الحق به ﴿ الْقصاص ﴾ المماثلة في القتلَى وصفاً وفعلاً . وهو من اقتص أثر فلان ، إذا فعل مثله . ﴿ فِي الْقَتْلَى ﴾ أي بسبب القتلَى فَيُقْتَلُ ﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ ﴾ أي يُقْتَلُ القاتل إذا كان مساوياً للمقتول في الحرية التي يجب أن تُراعى بادئ ذي بدء

(١) من خطبة الوداع التي قال فيها الرسول صلى الله عليه وسلم : أيها الناس إن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . (انظر مسند الإمام أحمد / ٥) .

(٢) المدخل إلى القانون الدولي العام ، ص ١٧٦ .

أما المادة والعلم والحسب والنسب فلا تحول دون المساواة في هذا الباب . ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾
لأنه مساو له في المنزلة ، ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ لأنها مساوية لها في الأنوثة . ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ
مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي فمن عفا له أخوه في الدين من أولياء الدم وتجاوزوا عن شيء من حقهم
_ ولو واحداً منهم إن تعددوا _ سقط القصاص . ﴿فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي فلتكن مطالبته
بالفدية بالمعروف دون عنف أو تعسف ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ أي وتأدية من جهة الجاني
للمجني عليه من غير محاطلة ولا بخس حق . ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي الحكم المذكور
من العفو والدية هو تسهيل لكم ﴿وَرَحْمَةٌ بِكُمْ﴾ حيث وسع ولم يحتم واحداً منهما كما
حتم القصاص على اليهود والدية على النصارى .

بناء على ما ذكر يكون المطلوب تطبيق هذا النظام . ويكون موجب القتل العمد أحد
أمرين : إما القصاص ، وإما العفو إلى الدية ، فأيهما اختار الولي أجبر الجاني عليه . وهذا
ما عليه الإمام الشافعي . ومنهم من قال بأن من معاني العفو هنا الإسقاط أو العطاء .
وذهب آخرون إلى أن العفو : العطاء . وفي التفصيل (خلاف فقهي) . إنما المهم في ذلك أن
الله تعالى فتح للقاتل باب النجاة عن طريق العفو ، ورحمة بآل القتل حيث كتب لهم ثواب
العفو ، وجعل لهم من الدية بعض العزاء . وحرّم ما كان يجري بين القبائل من ظلم ، إذ
كان بعضهم يأبى أن يقتلوا في امرأتهم إلا رجلاً ، على ما جاء في حديث الشعبي .
وقد بينت السنة الشريفة أن الذكر يُقتل بالأنثى ، والحرُّ بالعبد إذا لم يكن سيّده . فقد
ورد في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلّم قوله : "المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى
بذمتهم أديانهم ، وهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ"^(١) . فقال : المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ولم
يفرق بين عبد وحرّ في ذلك .

﴿فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ من أهل القتل بعد العفو والرضاء بالدية ، بأن انتقم من
القاتل ، أو حقد عليه ﴿فَلَهُ﴾ في الآخرة من الله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفوق العذاب الذي يتوعده

(١) سنن أبي داود : ٢٧٥١ .

به في الآخرة، يتعين قتله، ولا تقبل منه الدية. لأن الاعتداء بعد ذلك التراضي والقبول نكث للعهد، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب. ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي ولكم يا أصحاب العقول فيما شرعته من القصاص حياة وبقاء «لأن الناس إذا علموا أن من قتل يُقتل كف بعضهم عن بعض. فإذا هم أحد يقتل أخيه أو جس خيفة من القصاص فكف عن القتل. فكان في ذلك حياة له وحياة لمن أراد قتله، وحياة لغيرهما من الناس. وربما وقعت الفتنة بالقتل فيقتل فيها خلق كثير، وشرع القصاص حاجز لذلك كله. وهذا على أن المراد بالقصاص شرع القصاص. ويمكن أن يراد منه القصاص نفسه. ويكون المعنى بأن في القصاص نفسه حياة، لأن القاتل إذا اقتص منه كان عبرة لغيره، فيرتدع من يهمون بالقتل فلا يقتلون ولا يقتلون، فكان القصاص سبباً للحياة...

وقد نقل الله تعالى العقوبات بهذه الآية إلى معنى سام جليل، فجعل الغرض منها الاستصلاح ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ ولم يقل انتقام. ولقد رقت قلوب قوم من رجال التشريع الوضعي، فاستعظموا قتل القاتل ورحموا من القتل. ولقد كان المقتول ظلماً أولى برحمتهم وعطفهم. وإذا رحموا القاتل فمن يرحم المجتمع الذي يكثرفيه المجرمون الفساد؟^(١). هذا العقاب الرادع الذي يجعل من يتجه إلى الاعتداء على النفس بالقتل يعلم أنه مأخوذ بالقتل إن قتل دون نظر إلى نسبه أو مركزه أو جنسه، فلا يقدم على الاعتداء على الآخرين. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ _المائدة/ ٥٠_، أي يصدقون بأن خالق الناس أعلم بالناس ونفوسهم، وأعرف بمصالحهم، وأرحم بهم من عباده.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تتخذون من هذا النظام الاجتماعي وسيلة إلى التقوى، وهي الحذر من ناحيتين: الأولى: الاعتداء على الحياة كلها وصفائها، فإذا كف القصاص

(١) تفسير آيات الأحكام: ٥٤/١.

الجاني عن حياة واحدة فلم يزهقها ، كان في هذا الكف حياة مطلقة ، لاحياة فرد ، ولا حياة أسرة ، ولا حياة جماعة .

الثانية : الحذر من نقم الله وعذابه ، وفي هذا استجاشة شعور التدبّر لحكمة الله تعالى وتقواه . فالآية صرخة مدوية في وجه الظلم والرضا به ، وليس لأحد حجة عليها . «والآية جمعت بسبب جريمة القتل بين تشريع القصاص الذي كان في بني إسرائيل ، وبين تشريع الدية الذي كان في النصارى . وأصبح الخيار مقررأ بين القصاص والدية والعفو مطلقاً عن أي شيء . بل إن الإسلام حضّ على العفو في آيات كثيرة ، منها : ﴿وَأَنْ تَعْفُو أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ البقرة / ٢٣٧ . أما إن أراد في الدم القصاص فعلى القاتل الاستسلام لأمر الله والانقياد لقصاصه المشروع ، وهذا فرض عليه . كما أنه فرض على الولي الوقوف عند قتل القاتل ، وترك التعدي على غيره ، كما كانت العرب تتعدّى فتقتل غير القاتل . »^(١) وهكذا رأينا أن الإسلام في نظام العقوبات لا يهدف أبداً إلى الانتقام من المذنب بقدر ما ينظر إلى العبرة والموعظة والترغيب بالتوبة . ثم إن مهمة تطبيقه موكولة إلى صاحب السلطة التنفيذية .

(١) التفسير المنير ج ٢ ، ص ١٧٨ .

النداء الخامس : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

البقرة/ ١٨٢ و ١٨٣

لقد استهدف الإسلام في كل تشريعاته بناء الإنسان المتكامل الذي يعرف خالقه معرفة يقينية تقوم على الحجة واليقين الكامل . وهذا ما يهدف إليه هذا النداء . الذي فرض الله تعالى به ركناً من أركان العبادات على عباده الذين آمنوا بالله وصدقوا برسالة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبأن القرآن والسنة هما مصدر التشريع الإسلامي ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ أي فُرضَ عليكم الصيام . والصيام من الناحية الشرعية في إجماع العلماء هو الإمساك عن المفطرات يوماً كاملاً بنية مخصوصة ، من الفجر الصادق إلى الغروب ، من مسلم بالغ عاقل ، ومسلمة طاهرة عن حيض ونفاس .

﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ من حيث الفرضية ، دون النظر إلى الصفة ولا عدة الأيام . إذ لم تخل شريعة من الشرائع من فرض الصوم ، وإنما اختلف الصوم في ماهيته وكيفيته ومقداره .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فالغاية المرجوة من الصوم أخبرنا الله بها وهي تقوى الله . وهل من تقوى أعظم من أن يراقب العبد ربه ويردع عن الشهوات نفسه ، ويحفظها ، ويخضعها لامثال أمر مولاه بترك طعامه وشرابه حباً في رضاه . وفي هذا أعظم معاني الجهاد للنفس

بإذلالها وإشعارها بمبلغ ضعفها وشدة حاجتها إلى الطعام والشراب لتسكن إلى ربها وتخضع لعظمته فلا تتكبر عن عبادته، وتتصور مقدار فضله عليها فتبالغ في شكره، وتذكر حالة الفقير فيزيد خوفها ويعظم عطفها على عباده .

«إن من يتأمل في قصة خلق آدم وحواء، وخروجهما من الجنة، يجد أن شهوة البطن قد كانت هي أولى الشهوات التي سببت لهما كل ما حاق بهما، حيث نهاهما ربهما عن الأكل من الشجرة، فغلبتهما شهوة الأكل من الطعام الممنوع، فأكلا منه، فبدت لهما سوءاتهما، وتبع ذلك شهوة الجسم، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وهكذا أصبحت شهوة البطن مصدر الشهوات ، ومبعث الأدوية والآفات، ويتبعها شهوة النكاح، ثم الرغبة في المال والجاه، ومن هنا تتولد أنواع المفاسد والمنافسات، وينشأ الحسد والكبرياء، والعداوة والبغضاء، إلى غير ذلك من السيئات التي يحركها إبليس في نفس الإنسان ولا سبيل إلى مقاومته إلا عن طريق الجوع . . .»^(١).

﴿ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ ﴾ قلائل، هي أيام شهر رمضان ، كما أوضحته الآية التي بعدها:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ . . . ﴾ .

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أي إذا كان مريضاً فعلاً أو مسافراً غير مرتحل فعلاً أثناء النهار ، فإنه يعدل عن الصوم إلى الإفطار في أيام المرض أو السفر . على أن يقضي تلك الأيام بمثلها من أيام آخر غير أيام شهر رمضان ، عند القدرة . وهذه رخصة من الله الرحيم بالإفطار ، (وهناك خلاف فقهي حول المرض المبيح للفطر ، وكذا بالنسبة للسفر) .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ أي الذين يقدرُونَ عليه مع الشدة والمشقة ، من غير المريض والمسافر، كالشيخ الهرم، والمرأة الحامل، والمرضع، أو من تكون أعمالهم شاقة كتكسير الأحجار والعمال في المناجم، لا لمجرد الوهم ، إذا أفطروا ﴿فِدْيَةٌ﴾ تتعين عليهم في حالة

(١) أسمى الرسائل، ص ٣٦٤ .

إفطارهم مقابل رفع المشقة عنهم .

« سئل الحسن البصري ^(١) عن الحامل والمرضع إن خافتا على نفسيهما أو ولدهما ، فقال : أي مرض أشد من الحمل ! تظفر وتقضي . ثم إن العلماء أجمعوا على أن الواجب على الشيخ الهرم ؛ الفدية . أما الحامل والمرضع ؛ فقال الشافعي رضي الله عنه : عليهما الفدية مع القضاء . وقال أبو حنيفة رضي الله عنه : ليس عليهما إلا القضاء . وحجة الشافعية ؛ أنهما داخلان في منطوق الآية ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ﴾ لأنهما لا يطيقان فتجب عليهما الفدية . أما أبو حنيفة فجعلهما في حكم المريض ، انظر إلى قول الحسن البصري : (أي مرض أشد من الحمل) يفطران ويقضيان . ثم قال أبو حنيفة : فرق بينهما وبين الشيخ الفاني ، لأنه لا يمكن إيجاب القضاء عليه ، لأنه إنما سقط عنه الصوم إلى الفدية لشيخوخته وزمانته ، فلن يأتي عليه يوم يكون أقدر على الصوم من أيام رمضان التي أفطر فيها . أما الحامل والمرضع فهما من أصحاب الأعذار الطارئة المنتظرة الزوال ، فإن زال عذرهما فعليهما عدة من أيام آخر ، وإن لم يزل كانا كالمريض الذي لم تزل علته . على أنه لا يمكن إيجاب الفدية عليهما مع إيجاب القضاء ، لأن الفدية بدل الصوم » ^(٢) . هذه الفدية مقابل رفع المشقة قدرها ﴿ طَعَامُ مَسْكِينٍ ﴾ علاوة على الإعادة عند القدرة . فإذا لم يقدرُوا على الإعادة مطلقاً ، كما في الشيخ الهرم ، وعلم الله منهم ذلك ، فأمرهم مفوض إلى الله الذي يعلم ماتكته النفوس . (وهناك خلاف فقهي حول هذه المسألة أيضاً) . وجمهور العلماء على أن هذا الصوم واجب على التخيير ، إن شاء صام ، وإن شاء أفطر ودفع الفدية ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ قال بعض العلماء من تطوَّع بالزيادة على مسكين

(١) الحسن بن يسار البصري (٢١-١١٠هـ) تابعي جليل ، إمام أهل البصرة ، شب في كنف علي بن أبي طالب ، كانت له هبة عظيمة في قلوب الولاة والحكام ، يأمرهم وينهاهم . وصفه الغزالي بأنه أقرب الناس هدياً من الصحابة .

(٢) تفسير آيات الأحكام : ١ / ص ٦٨ .

واحد فهو خير له . وقال آخرون : من تطوَّع بالزيادة في مقدار الفدية على المسكين الذي أعطاه . وقال الزهري : من تطوَّع بالصيام مع الفدية فهو خير له . ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي أن الصوم أفضل من الإفطار والإعادة مع الفدية ، وإن كانت زائدة عن طعام مسكين . وهذه الزيادة تحذير للناس من الإفطار لأبسط عذر أو أقل مشقة . والله كفيل بعون من أثر الصوم من أجله . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما في الصيام من الحكم الإلهية وطاعة وامثال لأمر الله ، وتهذيب للأخلاق ، وتعويد على النظام وقوة الإرادة ، والصبر على الاسترسال وزراء الملذات .

وهكذا دلَّت الآية على : ١- أن شريعة الصيام لم تكن بدعاً من الشرع ، بل كانت مكتوبة على من قبلنا من الأمم .

٢- وجه الحكمة في إيجاب الصوم ؛ وهو أنه سبب قوي في حصول التقوى .

٣- رحمة الله بعباده ، إذ لم يكلفهم بما يشق ، بل كلفهم أياماً معدودات ، وهي إن قلَّت فتواها عظيم .

٤- بين أن هذا التكليف خاص بمن قدر عليه ، إذ أباح تأخيرها لمن يشق عليه من المرضى والمسافرين إلى وقت يقدرون عليه فيه .

فالناس على ثلاثة أحوال : - الأصحّاء المقيمون ؛ ويلزمهم الصوم عينا في رمضان .

- والمرضى والمسافرون ؛ ولهم الفطر إن أرادوا ، وعليهم إن أفطروا أيام آخر .

- وقوم لا يقدرون على الصوم وفيه ضرر لهم ، فهؤلاء يفدون .^(١)

وقد تناولت كتب العبادات كثيراً من فوائد الصوم والحكمة منه ، وما يحققه من تربية

فردية وجماعية تستهدف الاعتياد على النظام ، وتهذيب الأخلاق ، وكف الجوارح عن المكاره ، حتى يصل الإنسان إلى درجة الإحسان .^(٢)

(١) المصدر السابق : ١/ ص ٦٣ و ٦٧ .

(٢) أنظر الإعجاز في القرآن ، ص ٢٠٦ - ٢٠٩ .

النداء السادس : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كُلِّهِ ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ _البقرة/ ٢٠٨_

نداء الله تعالى للذين آمنوا به أن يأخذوا بعروة أساسية من عرى الإسلام فيستسلموا بكليّاتهم لله ، في ذوات أنفسهم ، استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية . فإذا استجاب المؤمنون لهذا النداء الإلهي دخلوا في عالم كله سلم وسلام ، سلام مع النفس والعقل ، وسلام يظلّل الحياة والمجتمع .

ورد في تفسير ابن كثير ، وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما حول قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كُلِّهِ﴾ : «يعني في دين الإسلام . وقال الضحاك عن ابن عباس وأبي العالية والربيع بن أنس : ﴿ادخلوا في السَّلَامِ﴾ يعني الطاعة . والصحيح أنهم أمروا بأن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ، وهي كثيرة جداً ، ما استطاعوا منها .» ^(١)

ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف يعرّب القلب في النفوس غير المؤمنة ، في المجتمعات التي لا تعرف الإسلام ، أو التي عرفت الإسلام ثم تنكّرت له تحت شعارات متباينة .

ولما دعا الله تعالى الذين آمنوا أن يدخلوا في السلم جميعاً ، حذّرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان ، فقال : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي اعملوا بالطاعات لأنّ نقيضها المعاصي وهي طريق الشيطان . إذ ليس هناك إلا اتجاهاً اثنان ؛ إمّا الدخول في

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، سورة ٢ ، آية ٢٠٨ .

الإنس والجن في سورة الناس ، وقال : ﴿ يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ _ الأنعام / ١١٢ _

« ولا شك أن شياطين الإنس أشد فتكاً وخطراً من شياطين الجن ، فإن شيطان الجن يخنس بالاستعاذة ، وشيطان الإنس يزيّن له الفواحش ويغريه بالمنكرات ، ولا يثنيه عن عزمه شيء . والمعصوم من عصمه الله » ^(١) . فالذين اتّبعوا خطوات الشيطان زوّدهم بالخديرة والعتاد لتحارب كل فئة جارتها المؤمنة ، وتستجيب لدعوات مغرضة بإقامة سلام مع من اغتصب الأرض والمقدسات ، وانتهك الحرمات على طريقة الاستسلام ، بدلاً من أن تستجيب إلى دعوة الخالق بالسلام بين المسلمين . ولن نستغرق في التفصيلات ، فالقارئ إذا استعرض كيف كان المسلمون وكيف أصبحوا في دولهم ، وكيف كان العرب وكيف أصبحوا في أقطارهم ، يعرف كم دولة إسلامية أثّرت فيها الفتن والاضطرابات ولم تنجح الدعوة في الدخول إلى السّلم ، لأن الفئات المتصارعة غالباً ما تحتكم إلى دول لا ترعى حرمة للإسلام ولا للعروبة ، بدلاً من الاحتكام إلى منهج الله تعالى القائل : ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ ، وهو القائل : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا . . . ﴾ _ الحُجُرَات / ٩ _ .

وإني لأعجب كيف تتخذ بعض الدول من الإسلام شعاراً لها ، أو نصوصاً في دستورها ، أو تدعو في المؤتمرات الإسلامية إلى التآخي الإسلامي والتقارب والدفاع عن مصالح المسلمين ، ولكنها في أفعالها تناقض أقوالها . والأعجب من ذلك أن لا يستجيب ولاية أمورها إلى نداء الله القائل : ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ . لا تستجيب للتوجيهات الإنسانية التي يطلقها القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وتستجيب للنداءات التي تطلقها الدول الأوروبية ، بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية ، بحجة حماية حقوق الإنسان . مع أن الإسلام هو حركة التاريخ نحو الإنسانية . ورسالته الإنسانية تتجلى في كل مبدأ من مبادئه ،

(١) صفوة التفاسير . مجلد ٣ ، ص ٩٨٦ .

على نقيض من الدول الأوروبية المنادية بحقوق الإنسان . ألم يهتم الإسلام بالأسرة ويدعو لحسن صحبة الأم ورعاية الوالدين قبل أن يكرّس الغرب للأم عيداً بمئات السنين ؟ ألم يدع إلى الرفق بالحيوان قبل الجمعيات الأوروبية التي تغار على الذبائح في موسم الأضحيات ولا تتحرك مشاعرها أمام ذبح الأطفال والأبرياء في الأرض المحتلة وجنوب لبنان ، وفي أفريقيا وغيرها ؟ يكفيننا أن نذكر كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي الجيش بعدم قتل شيخ أو طفل أو امرأة ، وألا يؤخذ البريء بجريرة الجاني . . . تذكّر يا أخي القارئ صورة الفتح الإسلامي الذي لم يفرض دينه على الأمم المغلوبة ، كما فرض المسيحيون عقيدتهم فرضاً على من بقي من المسلمين في الأندلس ، أو أخرجوهم من الإسلام قسراً في مناطق أخرى من العالم . والرسول صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ آذَى ذِمّاً فَقَدْ آذَانِي " ^(١) ، وقرن الأقوال بالأفعال . فما كانت الفتوحات الإسلامية إلا فتوح هداية وإرشاد ، لا حروب قهر واستعباد . والكل يذكر توجيهات خليفة رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم لقوآد جيوشه التي توجهت إلى بلاد الشام ، ويذكر عمر بن الخطاب وعذله ، وصلاح الدين ووفاءه ، وغيرهم . .

يقول الدكتور وهبة الزحيلي : « هذا الاتجاه في العالم نحو وحدة الصف ووحدة الدول ووحدة المصالح والقضايا ، يقابله اتجاه معاكس لدى المسلمين والعرب مع الأسف الشديد ، اتجاه نحو تعميق الخلافات القائمة بين الدول العربية والإسلامية ، نحو الفرقة . . هذا الاتجاه ينذر بشرّ خطير وسوء محقق محقق بهذه الأمة . فإن لم يستفك قادة هذه الأمة وعلماءها ومفكروها ويستأصلوا بقدر الإمكان جذور الخلاف ، فإننا في المستقبل القريب سنكون أسوأ بكثير مما نحن عليه الآن . . . فأصول الوحدة وجذورها والله الحمد كثيرة تربط بين المسلمين في أنحاء الأرض ، أخوة الإيمان ، وأخوة وحدة اللغة ، ووحدة الفكر ، ووحدة الأهداف ، والمخاطر والآمال والآلام ، كلنا نجمعنا هذه الأشياء ، وعدونا واحد ، فإن لم

(١) الجامع الصغير / ٨٢٧٠ ، عن ابن مسعود .

نتّحد على قائد واحد وحاكم واحد، فلا أقلّ من أن تتحد مناهج هذه الدول وتتفق في الأصول السياسية وفي الالتزام بشرع الله ودينه، وفي تنوير الفكر على أسس من العلم والحضارة والمعرفة التي أرادها الإسلام لهذه الأمة. ^(١)

فالخطاب لا يحقق حيويته إلّا بإدراك، وإنتاج، وإدراك إنتاج، وبذلك يتم امتلاك القدرة على التغيير، وقد علمنا _ بداية _ أن القرآن الكريم جاء يخاطب العالم أجمع فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم... ﴿الحجرات/ ١٣﴾ وقد تكرر مثل هذا الخطاب في أربعة عشر موضعاً. وهكذا توجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بدعوته إلى الناس جميعاً "أيها الناس؛ إنَّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا... يا أيها الناس كلُّكم لآدم وآدم من تراب... لا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى... ^(٢)

ففي هذا الشرع وهذا المنهج القرآني ما يوضح الطريق ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ _ المائدة/ ١٦ _ . ما أدق هذا التعبير وأصدقّه، إنه السلام الذي يسكبه المنهج في الحياة كلها، سلام الفرد، و سلام الجماعة، و سلام العالم. وقد عرفنا من سيرة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم كيف اعتبر البلاد الإسلامية وطناً واحداً، فأوجب على المسلمين جميعهم حمايتها والدفاع عنها، والعمل على إسعاد أهلها، ومنع الظلم والجور عنهم. حتى إنه لم ينه عن البر بالأُمم غير الإسلامية إذا لم يقاتلوا المسلمين ولم يسيؤوا إليهم. هذا هو السلام الحقيقي، سلام الضمير والعقل والجوارح، سلام الفرد والأسرة والمجتمع.

لقد كان المخاطبون بهذا النداء أول مرة يعرفون من تجربتهم في الجاهلية معنى هذا

(١) صحيفة كيهان العربي، العدد ٢٣١١، السنة ١٢، ٢١ ربيع الأول ١٤١٣ هـ، ص ٧.

(٢) مسند الإمام أحمد، المجلد الخامس، و الدر المنثور (خطبة الوداع).

السلام . وما أخرجنا الآن إلى إدراك هذه الحقيقة وأعداؤنا يترصّون بنا الدوائر . يراوغون باسم السلام أمام آلات التصوير وقلوبهم مليئة بالحقد ، وينفثون سمومهم في كل فئة ، يزيّنون لها طريق الشيطان . والحديث يطول حول هذا الموضوع ، لذا أنهيه بما رواه أبو هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "لاتدخلوا الجنّة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا ، أوّلا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم"^(١) . والعاقل يدرك أن المطلوب ليس لفظ السلام ، وإنما العمل بالسلام ومن أجله . أو تكرار لفظ السلام بهدف تأدية المعنى حقه الفعلي بين الناس وبين الشعوب . وهكذا يكون دور المسلمين ، دور التلاقي على الصعيد الإسلامي والإنساني ، دور الكره للحرب والعدوان والاغتصاب ، ودور الرغبة الصادقة في الوصول إلى السلام العادل للشعوب العربية والإسلامية ، بل للإنسانية جمعاء .

(١) صحيح مسلم/ ٩٣ . وذكره الترمذي / ٢٦٨٩ ، باب الاستئذان ، وغيرهما .

النداء السابع: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خِلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

—البقرة/ ٢٥٤—

هذا النداء دعوة من الله تعالى إلى تأليف قلوب المؤمنين وتقوية أواصر المودة بينهم، حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾ أي كونوا متصفين بالإنفاق، واتخذوا الجود والكرم ديدناً لكم في هذه الحياة، تأسروا بذلك القلوب، وتحصلوا على رضا علام الغيوب. «فالسخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام، وهو أصل من أصول النجاة. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه أحاديث كثيرة منها: "خُلِقَانِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ تَعَالَى؛ حَسَنُ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءُ، وَخُلِقَانِ يَبْغِضُهُمَا اللَّهُ تَعَالَى؛ سَوْءُ الْخُلُقِ وَالْبَخْلُ. وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ أَسْتَعْمَلَهُ فِي قِضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ"^(١). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ السَّخِيَّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ. وَإِنَّ الْبَخِيلَ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ. وَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ عَالَمٍ بَخِيلٍ"^(٢).

﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي ولا تكلفوا أنفسكم في هذا الباب بالمعدوم، بل أخرجوا مما هو في قبضتكم وتحت تصرفكم مما أنعم الله به عليكم، فهو الذي أعطى، وهو الذي يدعو إلى الإنفاق مما أعطى ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ رهيب، والمراد به هو يوم الحساب ﴿لَا يَبْعُ فِيهِ﴾ والبيع في الأصل هو الكسب بأي نوع من أنواع المبادلة أو المعاوضة، والمراد به هنا؛ لا فداء

(١) ذكره السيوطي في الجامع الصغير برقم: ٣٩٢٤.

(٢) المصدر السابق: ٤٨٠٤. والترمذي: ٢٠٢٧.

ومحبة الله تعالى على ألسنتهم فقط لاستوى الصادق والكاذب ، ولكن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق من الكاذب ، وصدق الله القائل في محكم كتابه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ - آل عمران / ١٤٣ - . . . »^(١) .

فالصبر إذن من الفضائل التي يعتصم بها المؤمن فتخفف من آلامه حين يرى وقاحة الطغيان وغلبة الشهوات . من أجل كل هذا ذكر الصبر في أكثر من سبعين موضعاً من القرآن ، ووعد المتحلّين به بأجر عظيم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ - النحل / ٩٦ .

ثانياً - ﴿ وَصَابِرُوا ﴾ والمصابرة هي مفاعلة من الصبر؛ مصابرة هذه المشاعر كلها ، ومصابرة الأعداء الذين يحاولون جاهدين أن يفلّوا من صبر المؤمنين ، فلا ينفذ صبر المؤمنين على طول المجاهدة ، بل يظلّون أصبر على أعدائهم وأقوى ، أعدائهم من كوامن الصدور ، وأعدائهم من شرار الناس . وإذا كان الباطل يصبر ويمضي في الطريق ، فما أجدد الحق أن يكون أشد إصراراً وأعظم صبراً على المضي في الطريق . فغالبوا أهواءكم ، وجاهدوا نفوسكم الأمارة بالسوء ، وأخضعوها لأمر الله .

ثالثاً - ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ المراقبة ؛ هي الإقامة في مواقع الجهاد وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء . وقيل لكل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه ؛ مرابط ، وإن لم يكن له مركب مربوط . وقد وردت الأخبار بدعوة الإسلام إلى اليقظة والتنديد بالغفلة ، والتحذير من الركون إلى الأعداء . روى سهيل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رباطٌ يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها " ^(٢) .

وثمة أحاديث أخرى في هذا المعنى ، وفي مجموعها تحذير لنا من الفئات المستغلة

(١) فقه السيرة ، د. محمد سعيد رمضان البوطي ، ص ١١١ .

(٢) البخاري في الكتاب ٦٠ ، باب ٧٢ ، حديث : ٢٧٣٥ . وحديث رقم : ٣٠٧٨ .

بشتى أنواع الاستغلال في العالم قديماً وحديثاً ، والمتمثلة اليوم بالمستعمرين وأذئابهم ، لا يقض مضجعهم ويقطع دابر جبروتهم وسيطرتهم واستغلالهم إلا الإسلام ، بما يحمله من عدل وقيم ومثل ، لذلك فهم في حرب ضروس دائمة ضده .

يقول الدكتور فتحي الدريني : « إزاء هذه الحرب التي يشنها أعداء الإسلام عليه ، قضت حكمة الله عز وجل بتشريع الجهاد والمرابطة . فإذا كان للمسلمين جند مرابطون يحمون حدودهم ويحرسون ثغورهم ، ردّوا كيد أعدائهم في نحورهم ، وصانوا أرضهم من رجس الغادرين . وإن هذه الحماية التي يقوم بها الجند المرابطون تبعث الطمأنينة في النفوس المؤمنة ، فيشعر كل مواطن أنه في مأمن على دمه وماله وعرضه ، وعندها تنتشر السعادة ، ويسود الاستقرار ، وتزدهر الأوطان . والمرابطة اليوم لم تعد تقتصر على حماية الحدود مع العدو من قبل الجنود ، بل أصبحت تتناول أيضاً ذلك الموظف أو المجند الذي يراقب أجهزة (الرادار) حتى لا تنتهك حرمة سماء الوطن طائرة معادية . والمقاتل الذي يجلس في قاعدة الصواريخ ينتظر الأوامر ليقذف حممه على العدو فيذهب بصلفه وكبرائه وأمثال هذا وذاك من حراس الوطن وحماة العقيدة ، كلهم أضحووا في عداد المرابطين . »^(١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط " ^(٢) . وهذا الكلام في الرباط لا يعارض ما ذكر أعلاه عن الرباط ما دام في ذلك طاعة لله وامثال لأوامره .

رابعاً- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم وأحوالكم ، واحذروا إتيان ما يغضب الله عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ في دار البقاء ، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن المرابط في سبيل الله في منجاة من العذاب فقال : " عينان لا تمسهما النار ؛ عين بكت من خشية الله ،

(١) التربية الإسلامية للصف الثالث الإعدادي ١٩٧٩ / ١٩٨٠ .

(٢) صحيح مسلم : ٤١ / ٢٥١ .

وعين باتت تحرس في سبيل الله" (١) .

وروى سلمان الفارسي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعملهُ وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان" (٢) .

وقال أهل المعاني في معنى هذه الآية : يا أيها الذين آمنوا اصبروا على بلائي ، وصابروا على نعمائي ، ورابطوا على مجاهدة أعدائي ، واتقوا محبة سوائي ، لعلكم تفلحون بقلائي .

الأقوال كثيرة في هذا الباب ، وقد حصر أحدهم إرشادات الآية بقوله : اصبروا على الدنيا ومحنها رجاء السلامة ، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة ، ورابطوا على مجاهدة النفس اللوامة ، واتقوا ما يعقبكم الندامة ، لعلكم تفلحون غداً في دار الكرامة .

(١) أخرجه الترمذي عن ابن عباس برقم : ١٦٩٠ ، والجامع الصغير عن أنس برقم : ٥٦٤٧ .

(٢) صحيح مسلم : ١٩١٣ .

الداء التاسع عشر: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

النساء/ ١٩

لقد اختلفت النظرة إلى المرأة عبر التاريخ ، ومن أمة إلى أخرى ، كما اختلفت النظرة إلى الإنسان ودوره وأهميته في الحياة . وتأرجحت النظرة إلى العلاقة بين الجنسين كما تأرجحت النظرة إلى المرأة بين اعتبارها كائنًا منقطعًا أشبه بالأشياء منه بالأحياء ، إلى اعتبارها شيطانًا يوسوس بالشر والخطيئة ، إلى اعتبارها سيدة المجتمع ، إلى اعتبارها عاملة عليها أن تكافح وتشقى لتعيش ، ثم تحمل ، وتضع ، وتربي . .

جاء الإسلام و عني بتصحيح النظرة إلى المرأة ، وبإقامة العلاقة بين الجنسين على أساس من حقائق الفطرة ، وبتوضيح هذه العلاقة في كل فرع من فروعها النفسية والعملية ، بحيث لا تضطرب ولا تتأرجح ولا يكتنفها الغموض في زاوية من زواياها . . عني أولاً بوحدة الزوجين ، وتساويهما (من الناحية الإنسانية) ليقضي على جميع النظريات الخاطئة التي كانت تزعم أن المرأة جنس منقطع بذاته عن الرجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً . . ﴾ _النساء/ ١_ .

وعني ثانياً ببيان وحدة الزوجين وتساويهما من ناحية علاقتهما بربهما وجزائهما عنده : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ

بعض . . ﴿آل عمران/ ١٩٥﴾ .

وعني ثالثاً بيان نوع الصلة بين شِقَيِّ النفس الواحدة ، وأهداف هذه الصلة المتنوعة ، سواء ما يختص منها بالزوجين ، أو بالمجتمع الإنساني كله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ _ الروم/ ٢١ _ .

وعني رابعاً بتنظيم الصلة بين الجنسين في كل أحوالها وأطوارها ، وما يشتركان فيه ، وما ينفرد به كل منهما وفقاً لتكوينه الفطري ووظيفته في المجتمع الإنساني القائم عليهما كليهما . فبينَ حقَّهما معاً في أصل الملكية والكسب والميراث . . وبين نظام قيام الأسرة ، ونظام التعامل بينهما في الأسرة ، وحقوق كل منهما على الآخر ، وحقوق الأطفال الناشئين ثمرة التقائهما كذلك . . . فالعلاقة تبدأ بمهر . . والمرأة لا تورث كالماتع ، ولا تمنع من الزواج بعد وفاة زوجها لتفتدي نفسها من أهل الزوج ، ولا تمسك بعد الطلاق ضراراً حتى تفتدي نفسها من الزوج ، كما هي الحال في الجاهلية . . .» ^(١) .

وللإقلاع عن هذه العادة الجاهلية وتقاليدها السيئة التي تدل على احتقار للمرأة وعدم اعتراف لها بالحقوق الإنسانية ، فتنزل بها إلى درجة أشبه ما تكون بالسلعة منها بالإنسان ، للإقلاع عن هذه المعاملة السيئة جاء هذا النداء الإلهي : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ فبينَ أنها ليست متاعاً يورث . فقد روى ابن جرير عن ابن عباس قال : كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاؤوا زوَّجوها ، وإن شاؤوا لم يزوَّجوها ، وهم أحق بها من أهلها ، فنزلت هذه الآية .

وأخرج أيضاً عن السدي قال : إن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه فإذا مات وترك امرأته فإن سبق وارث الميت فألقي عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه ، أو ينكحها فيأخذ مهرها ، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهم أحق بنفسها ، وعلى ذلك يكون المعنى : لا يحل لكم أن ترثوا آباءكم وأقاربكم نكاح نسائهم وهنّ لذلك

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ، ص ٥٧-٥٨ .

كارهات . وهذه هي النعمة الأولى .

النعمة الثانية : كانوا إذا تزوج أحدهم امرأة ، وكرهها ، حبسها ، وعضلها ، حتى تفتدى منه . فنهوا عن ذلك ، إلا أن تأتي بفاحشة مبيّنة ، فيجوز حبسها . وقيل عن الفاحشة هي الزنا . وقيل : هي النشوز . والأولى أن تعم ذلك .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قوله ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ يقول : لا تقهروهن ﴿ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ يعني الرجل يكون له المرأة وهو كاره لصحبته ، ولها عليه مهر ، فيضربها لتفتدي . وقال آخرون : الذين نهوا عن العضل هم أولياء الميت الذين يرثون زوجته ، ويمنعونها من الزواج حتى تموت فيرثونها . والعضل : الحبس والتضييق . ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴾ فيجوز حبسها ، وقيل : الفاحشة هي الزنا ، وقيل : هي النشوز ، والأولى أن تعم ذلك .

النعمة الثالثة : كان الرجال يسيئون عشرة النساء ، فيغلظون لهن القول ، ويضاروهن ، فقال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي صاحبهن بما أمركم الله به من طيب القول والمعاملة بالإحسان ، لبناء أسرة متفهمة لمسؤوليتها في الحياة . ولو عمل المسلمون بهذا الأمر لسعدت الأسر ، لأن أكثر أسباب شقاء الأسر ترجع إلى سوء العشرة و تعدي الرجل على المرأة في حقوقها . فالإسلام وضع لكل من الزوج والزوجة حدوداً واضحة يتميز فيها حق كل واحد تجاه الآخر ، وهي حقوق متكافئة تقوم على دعامتين أساسيتين : العدل والحب . فالعدل هو دعامة التشريع الإسلامي في كل الأمور . والحب هو روح المعاشرة الزوجية ، بل روح التربية الإسلامية السليمة . فأية الروم / ٢١ التي ذكرناها قبل قليل توحى بوجود نسب روحي يربط بين المرأة والرجل ، وينتج عن ذلك السكن النفسي والحب القلبي اللذين يثمران الحب والمودة والرحمة . وهذا يقتضي أن يفهم كل من الزوجين شخصية الآخر بحيث يتغاضى عن بعض السلبيات ، وينمي الإيجابيات في شخصية صاحبه ليدوم الود ، فلا تعصم عرى الزوجية لأول نزوة . وما أعظم قول عمر

ابن الخطاب رضي الله عنه لرجل أراد أن يطلق زوجته لأنه لا يحبها : (ويحك ، ألم تُبْنِ البيوت إلا على الحب ؟ فأين الرعاية ، وأين الذمم ؟).

﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ ﴾ فلا تفارقوهن للكرامة وحدها ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيجعلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كثيراً ﴾ كأن يعطفكم عليهن فيجعل منهن لكم زوجات راضيات ، أو يرزقكم منهن بأولاد صالحين تقر بهم عيونكم . ورد في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يفرّك (لا يبغض) مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر " .^(١)

النعمة الرابعة : قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً . ﴾ النساء / ٢٠ - أي إن أردتم أيها المؤمنون نكاح امرأة مكان امرأة طلقتموها فلا يباح لكم أن تأخذوا من المهر المدفوع شيئاً ، فقد ثبت حقهن بعقد النكاح الذي أباح الله لكم بموجبه الاستمتاع بالمعاشرة الزوجية .

« أخذ بعض الفقهاء من هذه الآية دليلاً على جواز المغالاة في المهور . روي أن عمر رضي الله عنه قال على المنبر : أيها الناس ! لا تغالوا في مهور النساء ، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أصدق امرأة من نسائه ولا أحداً من بناته فوق اثنتي عشرة أوقية . فقامت إليه امرأة فقالت : يا عمر : يعطينا الله وتحرمنا ! يقول تعالى : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾ فقال رضي الله عنه : أصابت امرأة وأخطأ عمر »^(٢) . إلا أن كثيراً من الناس أخذوا يغالون في المهور ، مع أن خير المهور أيسرها وأسهلها ، والله أعلم .

(١) صحيح مسلم ، ١٤٩٦ .

(٢) صفوة التفاسير : ١ ص ٢٦٨ (عن الكشف / ١ / ٣٧٩) .

النداء العشرون : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾
النساء/ ٢٩

درس آخر من دروس التربية الإسلامية ، يخاطب الذين آمنوا لتطهير نفوسهم من
رواسب الجاهلية ، ويستفز ضمائرهم بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا﴾ ، ويدخل
تحت الأكل جميع التصرفات التي تجلب المال للاستفادة منه ، وإنما خص الأكل بالذكر
لأنه من أهم ما يستفيد به الإنسان من الأموال ، وبدونه لا تستقيم الحياة . ﴿أَمْوَالَكُم﴾ التي
ملكها الله لكم ، و لكل إليكم أمر استخراجها والتصرف فيها ﴿بَيْنَكُم﴾ بأن يضع أحدكم
يده على مال الآخر ﴿بالباطل﴾ والباطل ؛ الزائل ، الذاهب ، والمراد منه غير وجه الحق .
فيكون المقصود : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا يأكل بعضكم أموال بعض بطريق غير
مشروع ، وهو كل طريق لم تبحه الشريعة : « كل طريق للسعي وجمع المال حلال ، إلا ما
كان عن ثلاث طرق : أ- الظلم . ب- الغش ؛ فلا يباح جمع المال عن طريقهما ، ولذا
حرم الإسلام الربا والقمار والاحتكار والغصب والسرقة ، وما أشبهها لأنها ظلم ، كما حرم
التغريب والربح الفاحش وإخفاء العيب في السلعة ، والكذب في رأس المال وغير ذلك من
البيوع المحرمة ، لأنها غش .

ج- الإضرار بالمجتمع ؛ كالاتجار بالخمر والاتجار مع العدو ، والربح عن كل طريق
يفسد الأخلاق العامة »^(١) . وقوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ استثنى
العمليات التجارية التي تتم بين البائع والشاري . فالتجارة وسيط نافع بين الصناعة

(١) الأحوال الشخصية في الأهلية والوصية والتركات : ص ٤٠٨ .

والمستهلك ، تقوم بترويج البضاعة وتسويق ، ومن ثم تحسينها وتيسير الحصول عليها معاً ، وهي خدمة للطرفين ، وانتفاع عن طريق المهارة والجد ، ويتعرض في الوقت ذاته إلى الربح والخسارة . وهذان شرطان للأموال التي يؤكل منها ؛ أحدهما أن تكون مشتركة بينكم ، ولا تعلمون إن كانت رابحة أو خاسرة . وثانيهما ؛ أن يكون الأكل من مال التجارة حاصلًا عن تراض بين الأطراف المعنية بهذه التجارة .

« والتجارة تشمل عقود المعاوضات المقصود الربح ، وخصها بالذكر من أسباب الملك لكونها أغلب وقوعاً في الحياة العملية ، ولأنها من أطيب وأشرف المكاسب . . وأخرج الأصبهاني عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يمدحوا ، وإذا كان عليهم لم يطلوا ، وإن كان لهم لم يعسروا " ^(١) .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ قتلاً حقيقياً بالانتحار ، أو مجازاً بقتل بعضكم بعضاً ، لما يؤدي إليه من المطالبة بالتأثر والمقابلة بالمثل والقصاص . وقيل : لما كان المال شقيق الروح من حيث أنه سبب قوامها وبه صلاحها ، حسن الجمع بين التوصية بحفظ المال والتوصية بحفظ النفس . وهناك رأي آخر ؛ أن في هذا النهي إحياء بالآثار المدمرة التي ينشئها أكل الأموال بالباطل في حياة الجماعة . إنها عملية قتل ، يريد الله أن يرحم الذين آمنوا منها حين ينهاهم عنها ، وإنها لذلك ، فما تروج وسائل أكل الأموال بالباطل في جماعة بالربا والغش والقمار ، إلا وقد كتب عليها أن تقتل نفسها وتردّي في هاوية الدمار . والله يريد أن يرحم الذين آمنوا من هذه المقتلة المدمرة للحياة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ في تشريع ما يحفظ أموالكم ودماءكم .

فالداء المذكور يستفاد منه في ثلاثة أمور رئيسية :

(١) التفسير المنير : ج ٥ ، ص ٣١ ، وحديث التجار ذكره في زيادة الجامع الصغير برقم : ٨٠٥ .

١- عدم الاعتداء على أموال الآخرين وممتلكاتهم ، ولئن كان المال في الحقيقة هو الله تعالى لقوله : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾_المائدة/ ١٢٠_ ، وإنما يملكه الإنسان مجازاً ، فهو مؤتمن عليه لقوله تعالى : ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ .
ويترب على هذا أن الإنسان ملزم بالتقيد بأوامر الله سبحانه في التملك بحسب ما يريده صاحب الملك .

«إن نظام الإسلام الاقتصادي والاجتماعي يمنح الفرد قدراً من الحرية بحيث لا يطغى على كيان الآخرين ، ويمنع المجتمع أو الدولة التي تمثله سلطة واسعة في تنظيم الروابط الاجتماعية والاقتصادية على أساس من الحب المتبادل بين الفرد والجماعة لا على أساس الحقد وإيجاد العداوات بين الناس . . . ولكنه لا يعطي المالك السلطان المطلق فيما يملك بغير أي قيد ، فهو لا يسمح بالربا والاحتكار ، ولا أن تكون الملكية سبيلاً للاستغلال والظغيان . . . وبعبارة أخرى : لا يمنع الإسلام الملكية الفردية مطلقاً ، ولا يطلقها بلا حدود ، لقوله تعالى : ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : "كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه وماله وعرضه"^(١) ، وقوله أيضاً : "لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه"^(٢) . وعلى هذا فيحرم التعدي على ملكيات الأفراد ما دامت مشروعة . لذلك قرر الإسلام عقوبات على السرقة ، والغصب ، والنهب ، والسلب ، والغش . وطالب بضمان الأموال المتلفة . وأما الملكية غير المشروعة فيجوز للدولة التدخل في شأنها لرد الأموال إلى أصحابها ، بل إن لها الحق أحياناً في مصادرتها ، سواء كانت منقولة أو غير منقولة . . . »^(٣) .

(١) رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة .

(٢) زيادة الجامع الصغير/ ٣٨٩١ عن خيفة الرقاشي ، وأخرجه الدارقطني في سننه بلفظ : لا يحل لامرئ من مال أخيه شيء إلا ما طابت به نفسه .

(٣) الفقه الإسلامي في أسلوبه الجديد ، ص٣٣٩ و٣٤٠ .

٢- التشجيع على التجارة وأساليبها المشروعة من بيع وشراء وعقود وشركات العنان وأمثالها مما يكون بتراضي الأطراف المعنية بالتجارة .

٣- النهي عن قتل النفس ؛ كأن يقتل الإنسان نفسه في حال غضب أو ضجر ، أو يقتل غيره . فقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً"^(١) .

فمن لحقه من الغم والأذى أو الخسارة المادية ما يظن معه أن الانتحار عليه أسهل فقد ارتكب ما حرم الله ورسوله ، ومجرد التفكير في هذا الأمر فيه دلالة على ضعف الإيمان .

ولكن جمهور المفسرين على أن المعنى : لا يقتل بعضكم بعضاً ، وإنما قال (أنفسكم) مبالغة في الزجر . وقد ورد في الحديث : "المؤمنون كالنفس الواحدة" . «ولا مانع من أن تكون الآية نهياً عن قتل أنفسهم ، وعن قتل بعضهم بعضاً ، وعمّا يؤدي إلى ذلك كتناول المخدرات ، واستعمال السموم الضارة بالجسم ، والمجازفة فيما يخشى منه الهلاك»^(٢) .

(١) صحيح البخاري/١٢٩٧ ، وصحيح مسلم/١٠٩ .

(٢) تفسير آيات الأحكام: ٢ ص ٨٧ و٨٨ .

النداء الحادي والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

— النساء/ ٤٣ —

هذا النداء حلقة في سلسلة التربية الربانية للمسلمين الأوائل الذين أنقذهم الله تعالى من ضلال الجاهلية ، حيث كانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي قبل الإسلام ، وتكاد تكون ظاهرة مميزة لهم ، كما تميّز بها المجتمع الروماني ، وكذلك المجتمع الأوربي والأمريكي ، ولم تفلح بعض المحاولات في القضاء على هذه الظاهرة ومثيلاتها . أما الإسلام فقضى عليها ببضع آيات من القرآن الكريم . والشواهد كثيرة على اعتناق العرب للخمر في الجاهلية ، وقد أوردوها بعضهم في أشعارهم أو مقالاتهم وندواتهم . لذا حين جاء الإسلام استعمل مع شاريها المنهج التربوي الذي عرفناه عن القرآن الكريم ، فقد لجأ الإسلام إلى تحريمها بآيات قرآنية تنزل بين كل فترة وفترة تكشف عن آثام الخمرة وعن آثارها السيئة ومضارها الخلقية والاجتماعية والدينية . فأول ما نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ — النحل/ ٦٧ — ، فقابل بين السكر والرزق الحسن ، ليشعر أهل العقول الراجحة أن الخمر شيء والرزق الحسن شيء آخر ، حتى تتنبه أحاسيسهم على التحريم فيما بعد . وظل عمر بن الخطاب يشرب الخمر في الإسلام حتى نزل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ

نفعهما ﴿البقرة/ ٢١٩﴾ . وكانت هذه هي الطريقة الأولى التي رجّحت جانب الإثم على جانب النفع التجاري لتزحزح النفس عن عاداتها المستحكمة فيها . فما دام إثم الخمر والميسر أكبر من نفعهما فهذا مفرق الطريق ، ولكن الأمر كان أعمق من هذا . وقال عمر رضي الله عنه : (اللهم بين لنا بيناً شافياً في الخمر) . ثم حدثت أحداث نذكر واحداً منها على سبيل المثال : فقد روى أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا ، وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة ، فقدموا فلاناً ، قال : فقرأ قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ، ونحن نعبد ما تعبدون . فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ «وعلى هذا قال الإمام الشافعي رضي الله عنه بوجوب معرفة اللغة العربية على كل مسلم لفهم ما يقوله المسلم في الصلاة ، خشية أن يقع في التغيير أو التحريف والتبديل في آيات القرآن . يؤيد هذا ما روي في حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه" .^(١)

وهذا النداء هو المرحلة الوسيطة بين التنفير من الخمر ، وبين التحريم القطعي الذي جاء في الآية (٩٠/ المائدة) ، وسيرد ذكرها في نداء آخر بإذن الله .

إذن كانت وظيفة هذه المرحلة الوسيطة ؛ ذكر أثر الخمر السيئ على العقول ، عدا عن تحذير المؤمنين من أن يكون السكر وصفاً لهم عند إقبالهم على الصلاة . وامثال هذا النهي إنما يكون بترك السكر في وقت الصلاة ، أو فيما يقرب من وقتها . وبما أن أوقات الصلاة موزعة على مدار النهار ، والفترات التي بينها لا تكفي للشراب ، ثم الإفاقة من

(١) تفسير الخطيب، ج ٥، ص ١٩ . والحديث ذكره البخاري في باب الوضوء/ ٢١٠ . وذكره مسلم في صلاة المسافرين/ ٧٨٦ .

السكر ، حتى يعلموا ما يقولون ، فضلاً على أن للشراب أوقاتاً ومواعيد خاصة صباحاً ومساءً ، وهذه تتخللها وتعقبها أوقات الصلاة . وهنا يقف ضمير المسلم بين أداء الصلاة ولذة الشراب . وكان هذا الضمير قد بلغ أن تكون الصلاة عنده عماد الدين . ومع ذلك فقد قال عمر رضي الله عنه : (اللهم بين لنا بياناً شافياً في الخمر) حتى نزلت آية التحريم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنُبًا ﴾ نهي عن الصلاة في حال الجنابة ، حتى يغتسلوا . ولما كان دخول المسجد من مقدمات الصلاة استثنى الله المار بالمسجد بغير قصد الصلاة فقال : ﴿ إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ مجرد عبور دون قصد أداء الصلاة ﴿ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ بالماء ، إذ الغسل من الجنابة شرط لصحة الصلاة . ولما كان الغسل بالماء قد يتعذر وينتهي وقت الصلاة المفروضة ، والشارع الحكيم لا يسمح بتركها ، فقد رخص الله للمؤمنين باستعمال التراب بدلاً من الماء في أربع حالات وهي :

ـ الحالة الأولى : ما يضر فيها استعمال الماء : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى ﴾ مرضاً يقرر أهل الخبرة أنه يؤدي إلى إلحاق ضرر بكم .

ـ الحالة الثانية : عند تعذر البحث عن الماء : ﴿ أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ لما في الوضوء في هذه الحالة من المشقة التي خول الله له بسببها القصر والجمع في الصلاة ، والإفطار في شهر رمضان ، فترك الغسل والوضوء من باب أولى ، إذا تأكد المسافر عدم وجود الماء على مسافة قريبة منه .

ـ الحالة الثالثة : قيام حدث أصغر ؛ ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾ والغائط ؛ مكان منخفض كانوا يقضون حاجتهم فيه ، فكفى عن الفعل بالمجيء من مكان الفعل .

ـ الحالة الرابعة : قيام حدث أكبر ، والمراد به الجنابة ، وكفى عنها بقوله : ﴿ أَوْ لَا مَسْتَمُ السَّاءِ ﴾ وفي تفسير الملامسة أقوال : قيل إنه كناية عن الجماع فهو يستوجب الغسل . وقيل إنه يعني حقيقة اللمس ، لمس أي جزء من جسم الرجل لجسم المرأة ، وهو يستوجب الوضوء في بعض المذاهب ولا يستوجب في بعضها ، (وفي كتب الفقه تفصيلات

لهذه الحالة ولكل سنده من أفعال أو من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمرجح في معنى ﴿لَمْ يَسْتَمِمْ النِّسَاءُ﴾ كناية عن الفعل الذي يستوجب الغسل .

وفي الحالات التي ذكرناها حين يكون الماء مفقوداً ، أو موجوداً ولكن استعماله يكون ضاراً أو غير مقدور عليه يغني التيمم عن الغسل والوضوء لقوله تعالى : ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾ أي فاقصدوا الأرض الطاهرة التي خلقت منها ، والتي لا تكاد تفقد في جميع البلاد وفي جميع الأوقات . وخشية أن يفهم الناس من هذا أن المراد استعمال الصعيد بمثل ما كانوا يستعملون الماء ، أوضح المراد من التيمم وكيفيته بقوله : ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ منه ، أي يكفي في استعماله بالقدر الذي يؤدي الغاية من الوضوء والغسل من إظهار الطاعة والحرص على المواظبة في أداء واجبات الوضوء والغسل أو ما ينوب عنهما ، وهو ما كان من جنس الأرض من تراب أو حجر أو حائط . ويكفي خبطة واحدة بالكفَّين على الصعيد الطاهر ، ثم نفضهما ، ثم مسح الوجه ، ثم مسح اليدين إلى المرفقين بهما . وإما خبطتان (ضربتان) خبطة يمسح بها الوجه ، وخبطة يمسح بها الذراعين (خلاف فقهي) ، فالدين يسر ، وفي مشروعية التيمم ما يؤكد معنى التيسير ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُوراً﴾ يعفو عما كان منكم من قيامكم للصلاة وأنتم سكارى ، ويسترد ذنوبكم فلا تعودوا لمثلها فيعود عليكم إثمهم وعذابه . إنه التعقيب الموحى بالتيسير والمغفرة في حال التقصير .

أخيراً يستشف من النداء المذكور حكمة جليلة من حكم التشريع الإلهي ، وهي أن العبرة في العبادات بمقاصدها . ولذلك لم يشترط استعمال الماء للوضوء والغسل في حال قيام المانع ، وأمر بالعدول عن ذلك إلى استعمال التراب لينتفي بذلك ما قد يتوهم من أن القصد منهما هو مجرد النظافة . ليفهم الناس بأن الغاية الحقيقية من الوضوء أو الغسل إنما هي طاعة الله والخضوع لأوامره . وفي هذا قطع لدابر المماحكين الذين يحاولون أن يوجدوا تعليلاً لكل عبادة . فما ذكره البعض عن حكمة الصلاة أو غيرها قد يكون مقصوداً ولكن الجزم يتجاوز المنهج السليم والحد المأمون ، والله أعلم .

النداء الثاني والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

النساء/ ٥٩

الأصل في الطاعة ؛ الانقياد ، وهو امتثال الأمر . فطاعة الله امتثال أوامره فيما أمر ، والانتفاء عما نهى عنه . وهي واجبة على كل الخلق . وأول ما يتبادر إلى الذهن في هذا النداء قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ _الذاريات/ ٥٦_ . وهذه العبادة في معانيها وأركانها تناولها كتابنا (الإعجاز في القرآن/ طريق إلى الإيمان) . وثاني ما يتبادر إلى الذهن ضرورة العمل بكتاب الله تعالى الذي ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ، فهو المنهج الذي لا محيد عنه ، وفيما تضمنه نداءات كثيرة للذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتتجلى طاعة الله ورسوله بالاستجابة لهذه النداءات عملاً صادقاً لا تلاوة للتبرك فقط .

فالفقرة الأولى من النداء المذكور أعلاه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ تعني الاستجابة إلى منهج الله عقيدة وعملاً مخلصاً ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ _البينة/ ٥_ .

أما الفقرة الثانية من النداء : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فهي دعوة عباد الله إلى طاعة رسول الله في كل ما يأتي به من قول أو فعل أو تقرير ، لتوضيح ما أشكل فهمه من القرآن ، وتفصيل مجمله . وفي تكرار لفظ (الطاعة) إشارة إلى أن السنة أصل من أصول الشريعة الإسلامية بعد القرآن ، ولدفع ما يوسوس به الشيطان إلى قلوب بعض الناس من أنه إذا

كانت طاعة الله واجبة باعتباره مالك الملك ، ما علاقة الرسول بذلك ؟ من أجل دفع هذه الوسوسة كرر تعالى كلمة الطاعة فقال : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ فالقرآن هو المنهج ، والرسول هو المكلف بتبليغ هذا المنهج وبيان المراد منه ، وما يحتاج إلى توضيح ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ _ النحل / ٤٤ _ ، فالعبادات من صوم وصلاة وحج وزكاة ونظام الأسرة وغيرها قد جاءت في القرآن بشكل مجمل ، تولّى النبي ﷺ الله عليه وسلّم بيانها وتحديد جزئياتها . وسنزيد هذا المعنى إيضاحاً في دعوة أخرى من الله لطاعة رسوله .

الفقرة الثالثة من الطاعة المطلوبة في هذا النداء : ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ وطاعة أولي الأمر تستوجب قبل كل شيء الرجوع إلى الآية التي سبقت هذا النداء ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ _ النساء / ٥٨ _ ففي مضمونها توجيه أولي الأمر بأن يؤدّوا الأمانات ، وأن يحكموا الناس بالعدل . والأمانات كثيرة في شرع الله ، منها الأمانة الكبرى التي أناط الله بها فطرة الإنسان وهي أمانة الهداية والمعرفة ، ومنها أمانة التعامل مع الناس والمحافظة على حرمة الجماعة وأموالها ، ومنها الحكم بين الناس بالعدل لأن العدل أساس الملك . فالنداء يوجه الرعية نحو طاعة الله أولاً وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ويوجه نحو طاعة الرسول ثانياً فيما أمر به أو نهى عنه ، ثم طاعة أولي الأمر فيما لا يخالف أمر الله ورسوله ، وهذا رأي جمهور العلماء . وروي عن أبي هريرة وابن عباس وغيرهما أن المقصود بأولي الأمر ؛ العلماء الذين يفتون في الأحكام الشرعية ويعلمون الناس أمور دينهم . « ويرى الفخر الرازي أن المراد من أولي الأمر ؛ أهل الحل والعقد ، ويريد من ذلك أن يستدل على حجية الإجماع ، وهو يدعم رأيه بأن الله تعالى ذكر ثلاثة واجبة طاعتهم ؛ الله ، ورسوله ، وأولو الأمر . والله ورسوله مقطوع بعصمتهم ، فوجب أن يكون أولو الأمر كذلك ، ولا تجد من أولي الأمر على ما ذكره المفسرون من هو واجب العصمة إلا أهل الحل والعقد عند

اجتماعهم على أمر من الأمور ، "لن تجتمع أمتي على ضلالة" فينبغي أن يكون المراد من أولي الأمر أهل الحل والعقد ، ويكون ذلك دليلاً على حجية الإجماع^(١) .

وقد يختلف أهل الحل والعقد في الحكم الواحد ، لذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وذلك بعرض الموضوع على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله من القواعد العامة والسنن المطردة ، بطريق القياس على الأشباه والنظائر ، فما كان موافقاً لها يعدّ قاطعاً ويجب الأخذ به .

روي عن علي رضي الله عنه أنه قال : حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ، ويؤدي الأمانة ، فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " ^(٢) .

وفي رواية عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية . ومن قاتل تحت راية عمية ، يغضب لعصبة ، أو يدعو إلى عصبة ، أو ينصر عصبة ، فقتل ، فقتله جاهلية . ومن خرج على أمتي يضرب برّها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ، ولا يفى لذي عهد عهده فليس مني ولست منه " ^(٣) . ومما يرشد إليه هذا الحديث أنه « جاء من أجل استمرار الوحدة التي أنعم الله بها على العرب بعد أن كانوا في حالة يندي لها الجبين من الفرقة والانقسام . فحذّرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من العودة إلى أساليب الجاهلية المقيتة التي لا يحصد المجتمع من ورائها

(١) تفسير آيات الأحكام : ٢ ص ١١٧ .

(٢) أنظر صحيح البخاري ج ٢ ، باب ١٠٧ ، حديث ٢٧٩٦ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة / ١٨٥١ . والراية العمية ؛ القتال تحت راية اجتمع أهلها على أمر مجهول لا يعرف أنه حق أو باطل . أما عصبة الرجل فأقاربه ؛ أي ينتصر لقراية أو جماعة من غير حق .

إلا الذلة والهوان . فكان مما حذر منه ؛ الخروج من الطاعة ، ومفارقة الجماعة . فالخروج من طاعة الحاكم العادل ، والانشقاق عن جماعة المسلمين يعرض كيان الدولة للانهار ، ويجعل الفرصة سانحة أمام أعداء الأمة للنيل منها والاعتداء على حرمتها ومقدساتها وحدودها . لهذا فقد أكد التشريع التزام الطاعة لولاة الأمور . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ، ما أقام كتاب الله فيكم " ^(١) . وأوجب على الأمة مناصرة الحاكم الملتزم لحدود الله ، والقضاء على فتنة الخارج عليه ، المفتت لوحدة الأمة . . . " ^(٢) .

عن أبي هنيذة وائل بن حجر قال : سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ؛ أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه ، ثم سأله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حمّلوا وعليكم ما حمّلتم " ^(٣) .

بالمقابل فإن الله تعالى يحث السلطان أو الحاكم على أن يحكم بالعدل ، وأن يتخذ بطاقة صالحة ، ويؤدي الأمانة . ولكن السؤال الذي قد يخطر على البال : ماهو مقياس الأمانة والعدل في كل مجال في الحياة ؟ هل هو العرف أو العقل أو الأهواء ؟ لا بد من ميزان ثابت ترجع إليه العقول فتعرف مدى الخطأ والصواب في أحكامها ، والله تعالى وضع هذا الميزان للأمانة والعدل ولسائر القيم ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فردّ ما يتنازع فيه إلى الله ورسوله من شروط الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ خير في الدنيا ، وأحسن مآلاً في الآخرة كذلك ، لأن من مزاي المنهج أن صانعه هو صانع الإنسان الذي يعلم حقيقة فطرته وحاجياته .

(١) رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه برقم : ٦٧٢٣ .

(٢) د . فتحي الدريني ، التربية الإسلامية للثالث الإعدادي ، عام ١٩٧٩ / ١٩٨٠ م .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، ١٨٤٦ / ٤٩ .

فالنداء يؤخذ منه التالي :

« ١- حصر الله تعالى مهمة الحكام في تنفيذ أوامر الله ، ومراعاة واجب العدل بين الناس ، مقابل طاعة الناس لهم ما أطاعوا الله .

٢- على الحاكم الرجوع إلى ذوي الرأي والعلماء ، كل في دائرة اختصاصه ومعلوماته ، حيث يقول تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ _ الأنبياء / ٢٧ _
فإجماع أهل الاختصاص مصدر من المصادر التي يرجع إليها الحاكم .

٣- مصادر التشريع الأصلية أربعة وهي : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس . . . » ^(١) .

(١) التفسير المنير، ج ٥ ص ١٢٩ .

النداء الثالث والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾

النساء/ ٧١ _

لقد أكثر الله تبارك وتعالى من ذكر الآيات التي من شأنها أن تقوي الروح المعنوية في قلوب المؤمنين ، وتجعلهم لا يهابون الموت لأنه أمر لا بد منه ، لأن الحرب من ضمن الوسائل التي قد يلجأ إليها المؤمن مضطراً في سبيل صد أعداء الله وتحقيق مقاصد الإسلام السامية ، ولذلك فمن الخير لهم أن يموتوا في ساحة الشرف من أن يموتوا حتف أنوفهم وعلى فراشهم وقد رسمت بعض آيات المنهج القرآني الخطط العامة للمسلمين ، فأية حضت على قتال العدو الأقرب لحدود البلاد ، وعلى بذل الجهد في هذا القتال فقالت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ . . .﴾ التوبة/ ١٢٣ . وآية حذرت من التقاعس أو التردد إذا دعا داعي الجهاد : ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً . . .﴾ التوبة/ ٣٩ . وفي هذا النداء يأتي التوجيه الإلهي بضرورة أخذ الحذر واتخاذ الاستعدادات المادية والمعنوية . وفي سورة الأنفال جوانب أخرى من التوجيهات العسكرية ، من ذلك : ﴿فَإِذَا تَقَفَّيْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ الأنفال/ ٥٧ .

وهكذا نجد القرآن الكريم لا يعلم المسلمين العبادات والشعائر فحسب ، ولا الآداب والأخلاق فقط ، كما يتصور بعض الناس ، إنما هو يعرض لكل ما تتعرض له حياة الناس من ملاسبات واقعية .

وها هو في هذا النداء يرسم جانباً من الخطة التنفيذية للمعركة المناسبة لوجودهم بين عداوات كثيرة تتربص بهم الدوائر من الخارج ، ولوجود المنافقين وحلفائهم اليهود في الداخل . وحين انطلقت الدعوة الإسلامية كانت عداوات الفرس والروم وحلفائهم من

الخارج ، واليوم نرى عداوات تتخذ أشكالاً مختلفة . لذا فالخطاب موجه للمسلمين في كل الأزمنة ، ما دام هناك أعداء يسعون للنيل منهم ومن الشريعة الإسلامية . من أجل كل هذا حذّره ابتداء بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ والحذر بمعنى التيقظ من المخاوف . أو احترزوا من العدو بأخذ الأهبة والاستعداد من الناحيتين المادية والمعنوية . وهذا يجب أن يكون مفهوماً ضمناً لدى المؤمنين الذين جاءهم القرآن بالقواعد الكلية ، وترك الإحاطة بالجزئيات إلى أفهام رجال العلم والعقل مع إرجاعها إلى تلك القواعد . وقد أحاط علماء الإسلام وفقهاؤه بكثير من الجزئيات التي دعت إليها حاجة كل عصر ، وسدّوا حاجة زمانهم .

فالاستعداد المعنوي يتم بتغذية الروح والنفس بالعبادات الصادرة عن العقيدة التي ارتضاها الله لخلقه ، وثقيف الجند وبيان معنى الصبر والمصابرة وأثر ذلك في تحقيق النصر على الأعداء . وقد مرّ معنا النداء الداعي إلى الصبر والمصابرة والرابطة . ومن التربية النفسية أيضاً بيان أن النصر ليس بكثرة العدد والعدد لقوله تعالى : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ البقرة ٢٤٩ . وكذلك يكون الإعداد المعنوي ببيان الهدف من اتخاذ الحيلة والحذر ، وبيان الهدف من الجهاد وثمرته .

أما الاستعداد المادي فيكون بتربية الأجسام والعناية برياضتها ، فقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ " (١) . وكذا يكون بسلوك طريق الجد في الحياة ، لأن الحرب لا يستطيع ممارستها المائعون المترفون . ويكون الحذر أيضاً بحشد السلاح الذي يتفق وروح العصر ، وتهيئة المال لإمداد الجند بالغذاء والتموين اللازم والسلاح ، وتوجيه عدد من أبناء الأمة لدراسة العلوم العسكرية والتخصص فيها لوضع الخطط اللازمة للحرب النفسية والدفاعية والهجومية . .

(١) صحيح مسلم : ٢٦٦٤ / ٣٤ .

هذا الحذر ، وهذه الإجراءات لا تمنع من أن يرافقها لجوء إلى أساليب الدبلوماسية السياسية والوساطات الدولية التي يمكن أن تؤدي إلى التفاهم وحقن الدماء . فالإسلام ليس دين بطش وحقد على الآخرين كما أشاع بعض أعدائه ، بل هو دين عقيدة ومحبة ومسألة لمن سالم المسلمين ، ولمن لم يعترض سبل إقامة المجتمع المسلم بكل ما يتطلبه من النظم والمبادئ الإسلامية . ومع اتخاذ أسلوب المباحثات يجب أخذ الحذر من المندسين في الصفوف من المثبتين للهمم والعزائم وأمثالهم . ويجب التعرف على حال العدو ، ومدى استعداده ، ونواياه . فكل ذلك مما يحمل العدو على عدم التفكير في قتالنا أو التعرض لنا بسوء . والمشهور من سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام أنه كان يتخذ الأسباب ولا يهملها قبل النبوة وبعدها . فهو الذي تاجر طلباً للرزق ، وهاجر من مكة إلى المدينة من أذى المشركين ، واتخذ في السلم والحرب كل ما يلزم من الأسباب ، حتى إذا جاء أمر أحكم الحاكمين : ﴿ فأنفروا ﴾ هبّ الجميع بمعنويات قوية ، ونفوس مؤمنة صادقة ، و ﴿ ثبات ﴾ ، وهي من ثبت على الأمر ؛ إذا داومه وواظب عليه ، فهو ثابت لا يتزعزع ، والثابت ؛ الشجاع الصادق الحملة . وقيل : ثبات ، جمع ثبة ، أي مجموعة ، والمقصود : لا تخرجوا للجهاد فرادى ، ولكن اخرجوا مجموعات صغيرة ﴿ أو انفروا جميعاً ﴾ الجيش كله ، حسب طبيعة المعركة ، ذلك أن الأحاد قد يتصيدهم الأعداء المبتوثون في كل مكان ، وبخاصة إذا كان هؤلاء الأعداء منبئين في قلب المعسكر ، كما كان اليهود وبعض المنافقين في قلب المدينة المنورة .

جاء في تفسير القرطبي لهذه الآية : (هذا خطاب للمؤمنين المخلصين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يأمرهم به بجهاد الكفار والخروج في سبيل الله وحماية الشرع ، وأمرهم ألا يقتحموا على عدوهم على جهالة حتى يتحسسوا إلى ما عندهم ، ويعلموا كيف يردون عليهم ، فذلك أثبت لهم . . .) هـ .

وأضاف الدكتور وهبة الزحيلي قائلاً : « وأمر لهم بجهاد الأعداء ، وحماية الشرع

وديار الإسلام ، وتخليص المستضعفين ، وألا يقتحموا على عدوهم حتى يستطلعوا ماعنده من قوى وعدد وعدد ، لذا قال لهم ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ ، وهو تعليم لأسلوب مباشرة الحروب . ولا ينافي أخذ الحذر التوكل على الله ، بل هو مقام عين التوكل ، لأن التوكل ليس معناه ترك الأسباب ، وإنما هو الثقة بالله ، والإيقان بأن قضاءه ماض ، واتباع سنة نبيه في السعي فيما لا بد منه من الأسباب ، وتحرز من عدو أو إعداد أسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله المعتادة . . ودلت الآية على قاعدة من قواعد الحرب أو سياسة من سياسات المعركة وخطتها ، وهي النهوض لقتال العدو إذا دعا الإمام الناس إلى النفير . . . »^(١) .

ولا تخرج السرايا _ كما ذكرت التفاسير _ إلا بإذن الإمام ليكون متحسناً لهم ، عضداً من ورائهم ، وربما احتاجوا إلى درئه . إنها حكمة التشريع التي يجب الحرص عليها للحصول على الخير دنیا وآخره .

(١) التفسير المنير ج ٥ ، ص ١٥٥ .

النداء الرابع والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

— النساء/ ٩٤ —

ورد في سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة، ولكنها متشابهة في العرض والهدف، وإن اختلفت أسماء الرواة أو الأشخاص الذين نزلت بحقهم. ومن هذه الروايات: « قال ابن عباس: نزلت في رجل من بني ضمرة بن عوف، لم يسلم من قومه غيره، فسمعوا بسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم تريد، وكان على السرية رجل يقال له: (غالب ابن فضالة الليثي)، فهربوا منه، وأقام ذلك الرجل المسلم، فلما رأى الخيل خاف أن لا يكونوا مسلمين، فألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل، وصعد هو الجبل، فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون، فعرف أنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكرر ونزل وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم. فتغشاه أسامة بن زيد بسيفه فقتله، واستاق غنمه. ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبروه الخبر. فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجداً شديداً، وكان قد سبقهم الخبر. فقال الرسول: "أَقْتُلْتُمُوهُ إِرَادَةً مَا مَعَهُ؟" ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أسامة ابن زيد هذه الآية. فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فقال: "كيف أنت بلا إله إلا الله يقولها ثلاث مرّات؟" قال أسامة: فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكررها حتى وددت أنني لم أكن أسلمت إلا يومئذ. ثم استغفر له الرسول وقال: "اعتق رقبة". وروى أبو ظبيان عن أسامة قال: قلت يا رسول الله: إنَّما قالها خوفاً من السلاح. فقال: "أَفَلَا

﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ كهذا الذي كان مستخفياً بالإسلام من قومه ، ولما وجدكم أظهر لكم دينه ، وكنتم من قبل مستخفين بدينكم من كفار قريش فمن الله عليكم بإعزاز دينه وتقوية شوكة الإسلام ، فأظهرتم دينكم ، فتبينوا أمر من أشكل عليكم أمره .^(١)

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فلا يخفى عليه إن كان الحكم الذي تصدرونه لكفر أحد أو قتله صادراً بعد تثبت وبقين ، أم هو مبني على مجرد الظن ، أو لغاية شخصية وعرض دنيوي ، أو تحت ضغط أثر من آثار الجاهلية .

فالله _ سبحانه _ يذكر الذين آمنوا بما كانوا عليه في جاهليتهم من تسرع ورعونة وطمع بالغنيمة ، ويمن عليهم أن طهر نفوسهم ورفع أهدافهم ، فلم يعودوا ينفرون ابتغاء عرض من أعراض الدنيا الزائلة . وبهذا التذكير يلمس المنهج القرآني القلوب لتحيا وتذكر نعمة الله عليها . وعلى هذه الحساسية والتقوى يقيم الشرائع والأحكام بعد بيانها وإيضاحها . ففي آية واحدة أرشدنا إلى التالي :

١- أن الإنسان المؤمن يجب أن يتمهل في إصدار أحكامه على الآخرين ، ولا يتسرع ، ففي التأني السلامة وفي العجلة الندامة .

٢- أن تتحرر القلوب المؤمنة الخارجة للجهاد من كل شائبة من طمع أو غنيمة أو الحصول على عرض من أعراض الدنيا فما عند الله من أجر وثواب أعظم وأبقى مما يحصل عليه الإنسان في الدنيا من مكاسب ومغانم .

٣- لا يحق للإنسان أن يبنّي أحكامه على الظنون ، ولا سيما فيما يتعلق بالأنفس ، فإن بعض الظن إثم . ويكتفى في الحكم على الشخص بالإسلام بالنطق بالشهادتين ، أما استبطان الحقيقة وما في القلوب ، فذلك ليس من شأن العباد ، وإنما هو متروك لرب العباد والله أعلم .

(١) تفسير آيات الأحكام ٢ ص ١٢٧ .

النداء الخامس والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

__ النساء/ ١٣٥ __

عرفنا أنَّ من خصائص الإسلام أنه دين شامل عالِج جميع المشاكل ، وشرَّع لكل النواحي التي يحتاج إليها الإنسان . وأتينا في نداء سابق على أهمية العدل بين الناس في المعاملات وفي الحكم . وبما أنَّ قوام المجتمع لا يكون إلَّا بالعدل وحفظ النظام ، فقد عبَّ الله تعالى بهذا النداء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إذا أردتم أن تعلموا مني ما ينفعكم ويصلح كافة شؤونكم العامة في الحياة الدنيا ، فإني أرشدكم إلى أساس متين ، إذا عملتم به وحرصتم على عدم تجاوزه في السر والعلن ، نلتم الثقة بين الناس واستطعتم أن تكسبوا ودَّ الجميع ، وتعيشوا معهم في أمن وسلام دائم ، ذلك الأمر : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ ﴾ قَوَّامِينَ ؛ جمع قوام ، وهو المبالغ في القيام بالشيء ، والقيام بالشيء هو الإتيان به على أكمل وجه . فيكون المعنى : تحرَّوا ذلك بدقَّة تامَّة ، حتى يكون ذلك ملكة راسخة في نفوسكم . ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ أي العدل على إطلاقه ، في القول والعمل وفي كل حال ، وفي كل مجال ، والذي يعطي كل ذي حق حقه من المسلمين وغير المسلمين ، ويتساوى الأقارب والأباعد ، ويتساوى الأصدقاء في ذلك والأعداء ، والأغنياء والفقراء . ﴿ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ أي اعتبروا أنفسكم شهوداً لله في كل أمر ، بحيث إذا طلب منكم أن تؤدِّوا الشهادة فعليكم أن تقرروا الحق لا

لحساب أحد من المشهود لهم أو عليهم ، ولا لمصلحة فرد أو جماعة ، ولا تعاملًا مع الملبسات المحيطة بأي عنصر من عناصر القضية . ولكن شهادة لله ، وتجرداً من كل ميل ، ومن كل هوى ، ومن كل مصلحة ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ بأن تعترفوا بالواقع كما هو ، دون خوف أو وجل ، ولو أدى الأمر إلى إلحاق ضرر بكم . وهنا يحاول المنهج القرآني تجنيد النفس في وجه ذاتها ، وهي محاولة شاقة ، أشق من نطقها باللسان . إن مزاولتها عملياً شيء آخر غير إدراكها عقلياً ، ولكن المنهج القرآني يجند النفس المؤمنة لهذه التجربة الشاقة ، ثم يجند النفس في وجه عواطفها ﴿ أَوِ الْوَالِدَيْنِ ﴾ اللذين أوجب الله عليكم البرّ بهم فقول الحق مقدم على برّ الوالدين ﴿ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ كالأولاد والإخوان من باب أولى ، فلا تمنعكم صلة الرحم ولا المنفعة عن أداء الشهادة دون محابة حتى لا تضيع الحقوق أو يشيع الظلم والعدوان ، وتسوء حال المجتمع .

ثم يجند النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية أو الاجتماعية ، حين يكون المشهود له أو عليه فقيراً ، تشفق النفس من شهادة الحق ضده ، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه ، أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب النفسية والاجتماعية ، وحين يكون المشهود له غنياً تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته .

فالمنهج القرآني يجند النفس تجاهها كما جندتها تجاه حب الذات وحب الوالدين والأقربين ، فقال : ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا ﴾ أي فلا تجعلوا للمادة سبيلاً للتلاعب في الشهادة بأن تجاملوا الغني طمعاً في بره ، أو تتحاملوا عليه لحقدكم في نفوسكم منه ، وكذلك الحال مع الفقير . ﴿ فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ أخرى وأقدر منكم على الانتصار لصاحب الحق منهما ، وإن كانت هذه محاولة شاقة لا تقع إلا في ظل المنهج الإلهي القويم . ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ والهوى صنوف شتى ، منها حب الذات ، وحب الأهل والأقربين ، والعطف على الفقير في موطن الشهادة والحكم مجاملة للغني . وهذه صنوف ذكرتها الآية ، ومنها صنوف أخرى كالتعصب للعشيرة أو القبيلة وكرهة الأعداء . . فلا بدّ من العدل في الشهادة . وأخيراً يجيء التهديد والإنذار من تحريف الشهادة ﴿ وَإِنْ تَلَوُّوا ﴾ ألسنتكم ، أي تحرفوا

الشهادة وتغيروها ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ بكتمان الشهادة وتركها، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ يعلم انحرافكم عن الحق وإعراضكم عن الشهادة، فيجازيكم على ما اقترعتم .

« هذه الآية أمرة أمراً صريحاً قاطعاً بشيئين : الأول ؛ المبالغة في إقامة العدل والتعاون فيه دون تهيب ، ولا انحراف ولا تردد في القضاء به ، ولقد كان السلف الصالح مضرب المثل في التزام شريعة العدل في كل الأقضية حتى مع الأعداء ، ولو كان المسلمون هم المقضي عليهم ، ولهم في ذلك روائع الأمثال والقصص . . .

الثاني ؛ أداء الشهادة بالحق ، ولو على النفس ، أو الوالدين ، أو الأقربين ، لأن الحق يعلو ولا يُعلى عليه ، ولأنه أحق أن يُتبع ، ولأن الاستعلاء على مصالح النفس ومراعاة حظوظها هو أماراة الإيمان الصحيح بالله ، ولأن بر الوالدين وصلة الأرحام والأقارب إنما يكونان ضمن دائرة الحق والمعروف ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . فالشهادة ينبغي أن تكون خالصة لله . . ولا حاجة لمراعاة غني أو فقير ، فالله وحده يتولى أمورهما ، وهو أولى بكل واحد منهما . . »^(١) .

(١) التفسير المنير ج ٥ ص ٣١٥ .

النداء السادس والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

—النساء/ ١٣٥—

في بداية سورة البقرة أكد سبحانه وتعالى أن ﴿ذلك الكتاب﴾ الذي نزل به سيدنا جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن الكريم ﴿لَارِيبَ فِيهِ﴾ أنه من عند الله، أنزله ليكون ﴿هُدًى﴾ لما حواه من أدلة ساطعة تقنع كل عاقل بوجود إله واحد متصف بالكمال. إنه سبيل هداية ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين تتوفر فيهم صفتان رئيسيتان: الإيمان بالغيب، والتصديق بما أنزل الله على الرسل من كتب تبين أحكام الله وما فيه نفع البشر دنيا وآخرة. وقد ختم — سبحانه — السورة المذكورة بشهادة منه للمؤمنين بالتسليم والانقياد والطاعة فقال ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ عن طريق الوحي ﴿مَنْ رَبِّهِ﴾ فاهتدى بهديه وتخلّق بخلقه، ونفذ أحكامه، ودعا بدعوته، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ﴾ منهم أيضاً ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾ أنه الواحد الأحد، والمتفرد بالألوهية الذي لا يستحق العبادة أحد سواه ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ دون تفريق بين الرسل.

في هذا النداء تأكيد وأمر بالإيمان بالله وكتبه ورسله «فإن كان الخطاب لمؤمني أهل الكتاب فيراد به الأمر بالإيمان بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام وبالقرآن كالأنبياء السابقين والكتب المنزلة قبل القرآن. فقد روي أن هذا خطاب لمؤمني اليهود. قال ابن عباس وكذا الكلبي: (إن هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام، وأسد وأسيد ابني كعب،

وثعلبة بن قيس ، وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام ، ويامين بن يامين ، إذ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نؤمن بك وبكتابك ، وبموسى وبالتوراة وعُزير ، ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بَلْ آمَنُوا بِاللَّهِ ورسوله وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله " فقالوا : لا نفعل . فنزلت الآية . قال : فَأَمَنُوا كُلُّهُمْ^(١) .

وإن كان هذا الخطاب للمؤمنين فيكون المعنى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بربوبية الله من أتباع سائر الرسل ، هل أدلكم على الدين الحق الذي تستقيم به أموركم في الدنيا والآخرة ؟ ﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ ﴾ إلهاً واحداً لا شريك له ، ولا ضد ، ولا ندد ، ولا ضار ولا نافع سواه . ﴿ ورسوله ﴾ محمد بن عبد الله الذي أرسله الله إليكم ليهديكم سواء السبيل ، ﴿ والكتاب الذي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ وهو القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم نبياً واضحاً جلياً ، مبيناً للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام والدلائل الشرعية ، مشتملاً على كمال الفصاحة والبلاغة بأسلوب محكم وبيان معجز خارج عن طوق البشر . نزله على رسوله ليربطكم أيها المؤمنون بالمنهج الذي اختاره الله لحياتكم ، ويُنِّه لكم في هذا الكتاب ، والأخذ بكل ما فيه . وقال هنا (نَزَلَ) لأنه نزل مفرقاً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم ، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والكتاب الذي أَنزَلْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ على الرسل السابقين ، والذي جاء محمد صلى الله عليه وسلم مصداقاً ومؤيداً له .

ولما كان هذا الإيمان بتفصيل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من أركان الشريعة الإسلامية الخمسة ، وإلّا عُدَّ كافراً ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الذي يكون فيه الحساب والعقاب والجنة والنار ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ ، لأن عقيدة الإسلام إنما تقوم على الاعتقاد بجميع ما ذكر .

(١) تفسير الخازن ، ج ١ ، ص ٤٠٦ . والكشاف ١/ ٤٣٠ . والتفسير المنير ج ٥ ص ٣١٣ .

فالإيمان أعظم شيء ، وثوابه أعظم شيء ، والكفر أخطر شيء ، وعقابه أسوأ شيء .
ذلك لأن الإيمان يبنى عليه كل طاعة ، والكفر لا يقبل معه طاعة ، ولا يصح مع الإشراك
عمل . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ _ النساء / ١١٥ . وقال
أيضاً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ
افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ _ النساء / ٤٧ . فالشرك انقطاع بين الله والعباد ، فلا يبقى لهم معه أمل
في مغفرة إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون ، مقطوعي الصلة بالله رب العالمين .
فالذي يكفر بالله الذي تؤمن به الفطرة في أعماقها كحركة ذاتية منها واتجاه طبيعي فيها ،
ويكفر بملائكته حتى لا يقال عنه رجعي بسبب إيمانه بالغيبيات ، والعلم إنما يستند على
الماديات والمحسوسات _ حسب زعمه _ وما شابه من هذه الأقوال المدسوسة بين كثير من
شباب هذا الجيل ، والذي لا يؤمن باليوم الآخر استمداداً من كفره بالحقيقة الأولى ؛ إنما
تكون فطرته قد بلغت به من الفساد والتعطل والخراب الحد الذي لا يرجى معه هدى .

فالنص أو النداء موضوع بحثنا قد دلّ على أمور رئيسية أبرزها :

- ١- أن الأديان في أصولها تدعو إلى مبدأ واحد ، وهو الإيمان بالله وحده لا شريك له .
- ٢- أن أركان الإيمان خمسة وهي : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم
الآخر . ولا شك أن أعلى أنواع الخير وأعظمها بالنسبة إلى أعمال القلب ؛ الإيمان بالله
تعالى ، ودون هذا النوع درجات كثيرة أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو
هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الإيمان بضع وستون شعبة
أو بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق"^(١) .
- ٣- التهديد على الكفر بعناصر الإيمان مع التفصيل في موضع البيان قبل العقاب ،
والتعبير بالضلال البعيد ، غالباً ما يحمل معنى الإبعاد في الضلال الذي لا يرجى معه هدى ،
ولا يرتقب بعده مآب ، والله أعلم .

(١) أخرجه الخمسة ، وهذا لفظ مسلم ، كتاب الإيمان / ٦٣ .

النداء السالِع والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ،
أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾

النساء/ ١٤٤

في هذا النداء ينبه الله تعالى عباده الذين آمنوا بأن الله وليّ المؤمنين وناصرهم ، من أن يفعلوا فعل المنافقين من تذبذب وتخيُّر بين الإيمان والكفر فيقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تتخذوهم نصراء وأعواناً تصاحبونهم ، وتصادقونهم ، وتناصرحونهم ، وتسرون إليهم بالمودة ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ _آل عمران/ ٢٨_ . ولا بدّ أنه كانت هناك حاجة إلى مثل هذا التوجيه في المجتمع الإسلامي الجديد ، حيث كانت الصلات ما تزال قائمة في المجتمع بين المسلمين واليهود في المدينة ، وبين بعض المسلمين وقرابتهم من مشركي قريش ، ولو من الناحية النفسية . ونقول بعض المسلمين ، لأن هناك البعض الآخر الذي فصم عرى العلاقات مع المجتمع الجاهلي ، حتّى مع الآباء والأبناء ، وجعل العقيدة وحدها هي أصرة المجتمع ، وشيعة الرحم ، كما علّمهم الله تعالى . وذلك البعض هو الذي دعت الحاجة إلى تنبيهه وتحذيره من التعرض لغضب الله . ولكن هذا التوجيه لم يأت لينبّه أولئك الذين كانت لهم صلات باليهود والمشرّكين فقط . بل له صفة العموم والدوام . وفيه تحذير للذين يوالون الكافرين وأعداء الأمة الإسلامية ، ويطلبون النصرة منهم مهما اختلف الزمان والمكان . فها نحن نرى بعض ولاة الأمور في البلاد العربية والإسلامية يتولّون من يخطط

لنهب خيرات الأمة العربية والإسلامية بوسائل يصعب حصرها ، وبشكل مباشر وغير مباشر . ويساعدهم أعوانهم الذين يشيعون بأن العرب أمة ضعيفة غير قادرة على حماية نفسها بنفسها ، ويطلقون أبواق الضلال والسنة السوء لتحطيم إمكانية الأمة والنيل من عزيمة أبنائها . ويصورون لنا أن الخير فيما يقدمونه لنا . هؤلاء المطايا هم المنافقون الذين وعدهم الله تعالى بأن يكونوا بالدرك الأسفل من النار ، لأنهم يتولّون من يحارب العروبة والإسلام ، ولأنهم وراء العديد من الجرائم في عدد من الأقطار العربية ودول العالم .

« أما تولّي الذمّيين الوظائف العامة في الدولة الإسلامية ، فليس بمحظور ، فإنهم اشتغلوا في عصر الصحابة في الدواوين ، وكان أبو إسحاق الصابي وزيراً في الدولة العباسية . »^(١) . فالإسلام لا يمنع أن يتعامل بالحسنى مع من لا يحاربه في دينه ، وحالة العداء بين المسلمين وغيرهم لا تقوم شرعاً بسبب عدم إسلامهم ، وإنما بسبب ما يبدو من بعضهم من مواقف عدائية وعدوانية ضد المسلمين . فموالاتهم ومناصرتهم من علامات النفاق ، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان " ^(٢) . ولهذا الحديث أبعاد اجتماعية واقتصادية وسياسية هامة في الصدق في الكلام والتصريحات . والوفاء بالوعود ضروري ومطلوب في حياة الأفراد والمؤسسات ، فالحياة والإنتاج والسياسة والاقتصاد كلها أمور متكاملة ، والعمل هو أساس ذلك كله ، والنية هي أساس العمل ، والمطلوب اليوم في الوطن العربي والعالم الإسلامي ، وفي كل انحاء الأرض نيات حسنة وآمال طيبة على كافة الأصعدة كي تسعد المجتمعات دنيا وآخره .

﴿ أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سُلطاناً مَبِيناً ﴾ أتريدون أن تقيموا حجة الله عليكم باستحقاقكم لعذابه إذا اتخذتموهم أولياء من دون المؤمنين ، وهو جلّ وعلا لا يريد هذا

(١) التفسير المنير، ج ٥، سورة/ ٤، آية/ ١٤٤ .

(٢) مسلم/ ١٠٧ والبخاري/ ٣٣ . وذكره الترمذي في سننه ، وكذا النسائي .

منكم ، وقد وعدكم بنصر وعزة في الدنيا ، وهناءة ونعيم في الآخرة ، إذا حصرتم ثقتكم فيه ولم تؤمّلوا النصر من سواه .

نلاحظ في هذا النداء تحريك النفس المؤمنة بهذا التعبير الذي جاء في صورة الاستفهام ، ومجرد التلويح بالاستفهام يكفي في خطاب المؤمنين ليفهموا أن موالة الكافرين دليل على النفاق .

ثم تأتي طريقة أخرى على هذه القلوب عن طريق التلويح في الآية التالية ، طريقة تقرر المصير المفزع المهيئ للمنافقين : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ ينقذهم من عذابها ، أو يرفعهم من الطبقة السفلى إلى ما فوقها يوم القيامة ، ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ، وَأَصْلَحُوا ، وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ ، وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ، فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

فباب التوبة مفتوح لمن اغترّب بموالة أعداء الأمة العربية والإسلامية من الكافرين ، أو استعان بهم على تثبيت دعائم ملكه . وليسرع بالتوبة حتى لا يقيم حجة الله عليه باستحقاقه عذاب الآخرة ، وهو يرى كيف تقوم قيامة حلفاء الصهيونية حين تقتل المقاومة _ المشروعة ديناً وقانوناً وعرفاً _ جندياً إسرائيلياً تخطى الحدود الدولية . ولا يتحرك ساكن إذا قصفت الطائرات الإسرائيلية الآمنين في المدن والقرى . ورغم كل هذا وذاك نرى بعض الأنظمة العربية تعمل على إقصاء المسلمين عن الحياة العامة ، وتقيم علاقات مع (إسرائيل) أكثر دفئاً مما عليه مع أقطار عربية وإسلامية أخرى . ونرى بنفس الوقت الحركات الإسلامية غير قادرة على التلاقي أو التعاون المشترك في الأطر العامة . وتوطد الإمبريالية الغربية أقدامها في العالم العربي والإسلامي ، وتساهم في تكريس تجزئة الوطن العربي ، وتؤثر على الصعيد النفسي في الجيل الجديد حتى تقلص آفاق الذكاء وتضيّق ، ويصبح مستحيلًا الارتفاع بمستوى العقل والروح ، ويحتقر التعليم أو على الأقل يهمل ، وتكاد روح البطولة تنطفئ . كما تؤثر على الصعيد الموضوعي بالانحلال السياسي ، وعلى الصعيد الذاتي بفقدان الإيمان ، مما أدى إلى بروز شعارات وتخطيطات شكلية ، وتعصب باطل إلى جهة تتمثل في شيخ أو جماعة ، أو إلى تعلق بالدنيا المتمثلة بسائر الشهوات التي تميل إليها

النفس . وبذلك تخلف المسلمون ، وجاء من يوهم الناس بأن الإسلام يدعو إلى التخلف . وبعضهم نسوا أو تناسوا أن أصل الانحراف الاجتماعي والسياسي أو التخلف عامة ليس في الإسلام ، بل في المسلمين الذين لم يتمكن العلم والإيمان منهم ، فوقعوا فريسة خطط تأمرية مرسومة ضد المسلمين من رسل الاستعمار الصهيوني وحلفائه . نسوا أو تناسوا أن الإسلام في جوهره كان وما يزال سليماً ، لكن فهم المسلمين له كان خطأ . وما نراه اليوم في المسلمين من التقهقر ليس من حقيقة دين الإسلام ، بل من جهل المسلمين الذين غرتهم الحياة الدنيا أو اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، فوقعوا فريسة الاستغلال الأوربي بأشكاله المختلفة والمتطورة باستمرار . وابتعدوا عن منابع الإسلام ومصادره إلى واقع أهله الحالي .

يقول الدكتور مصطفى محمود إجابة على سؤال : إن الغرب تقدم بالكفر ، وإننا تأخرنا بالدين ، وإن الدين صفة العاجزين المتأخرين ، فمن أين نأخذ علومنا ؟ أليس من الغرب الملحد ؟ يقول في إجابته على السؤال المذكور : «أولا تظلمنا إذا تصورت أننا متدينون ؟ تظلمنا وتظلم الدين ، وتظلم الواقع . فالحق أننا كسالى متواكلون ، مدّعون ، ليس لنا من الدين إلا اسمه ، الدين الذي يأمرنا بالعمل أمراً ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ . نحن متأخرون لأننا لا نعمل بديننا وليس لأننا متدينون . لن تكون متديناً إلا إذا أنكرت ذاتك وأصبح عملك من أجل الآخر وحياتك محبة وعطاء وعملاً متصلاً بلا طمع إلى أجر وبلا حقد وبلا حسد وبلا كراهية وبلا تواكل . لن تكون متديناً إلا بالعلم ، فالله لا يُعبد بالجهل ، ولم يكن (آينشتاين) جاهلاً حينما قال : إن الله موجود .»^(١) .

وحول الموضوع ذاته والادعاء بأن الدين يعوق عن ركب العلوم ، يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي : «أبعد أن أصبح إسلام المسلمين سجيناً عن الانطلاقة والعمل ، بعيداً عن القيادة والدفع ، يحمل تبعه تخلف الأمة عن ركب العلم والحضارة

(١) القرآن محاولة لفهم عصري ، ص ٢٦٤ .

والاختراع، وقد كان بالأمس القريب يمتنع أهله بما لم يشهده التاريخ... هل اجتمعت كلمة الخصوم المتدابرين على شيء كما اجتمعت على الكيد للإسلام والعمل على شلّ حركته وإنهاء قوته؟»^(١).

وهكذا أفعال الخصوم وسيطرتهم تتنامى إما عن طريق التصنيع والتقانة التي لا يستطيع تقديمها وصيانتها إلا الغرب. أو عن طريق تقبل الاستثمارات الأمريكية وقروض المصرف العالمي، وتزداد التبعية بوعي وبغير وعي، ويتعزز كل ذلك بفعل المصادر الإعلامية التي تتركز من حيث الإنتاج والتوزيع بكافة أشكاله في نفس الدول التي تحتكر مصادر القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية ومصادر الثروة. أما نحن فنعيش على استقبال ما تنتجه تلك الدول. وكيفنا مثال واحد للتذكير بأمور شتى، هو أن محطات التلفاز العربي تستورد ما بين ٤٠ - ٦٠ بالمائة من برامجها من الدول الغربية، ويحتل الإنتاج الأمريكي ٨٠ بالمائة من البرامج المستوردة، والكل يعرف مواقف الولايات المتحدة الأمريكية العدائية وبرامجها التي تكرس الانحلال الخلقي والسياسي واتفاقها مع الإعلام الغربي عامة على كل شيء فيه تشويه للإسلام وللعروبة. وفي غياب إعلام عربي إسلامي متماسك متكامل تبقى الساحة خالية أمام الإعلام الغربي الذي تخضع أكثر مؤسساته لسيطرة الصهيونية العالمية. والدلائل على ذلك كثيرة منها: صدور قانون في (إسرائيل عام ١٩٨٥م يحظر طرح أي فكرة حول يهودية الدولة أو إنكار الجرائم النازية، ومن يطرح ذلك يسجن لمدة خمس سنوات. ولكن يبدو أن هذا القانون مطبق في العالم الغربي. ولذلك جرت محاكمة (روجيه غارودي) في فرنسا حين قام بتكذيب ادعاءات الصهيونية عن الإبادة الجماعية لليهود من قبل الألمان، في كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية).

يقول الدكتور مأمون أبو الذهب: «ما تجرأ التلفزيون الإنكليزي مرة فتكلم عن العرب بخير عارضاً موقفهم في إذاعة تلفزيونية، حتى رن الهاتف في شركة التلفزيون آلاف

(١) من الفكر والقلب، ص ٢٦.

المرات ليحمل احتجاجات ضد ذلك . وتكاد الحلقات الصهيونية تسيطر على إدارة كل ما يصدر في أوروبا . . .»^(١) .

- و مما يؤسف له أن تتضافر عوامل أخرى في مساندة الإعلام الغربي وتحامله علينا ،
منها : ١- انجراف بعض وسائل الإعلام العربية أو الإسلامية خلفه وترديد الكثير من أقواله .
٢- ممارسات بعض المسلمين الذين لا يراعون في تصرفاتهم حق الله وعباده ، عن قصد أو جهل ، متبجحين بفكرة نشرت في كتاب ، أو قيلت في حوار إعلامي لذيل من ذبول الاستعمار الساعي للتشكيك بالدين والوطن والأمة والنفس . .
٣- أساليب بعض الأنظمة العربية ، ونقص استعداد العرب ، وانقسامهم .
٤- والأهم من كل ذلك عدم الالتزام بالمنهج القرآني الذي حذر من الموالة والتبعية لليهود ومن والاهم .

ولكن حصر أسباب التخلف والتبعية بالصهيونية كما يدعي البعض ، هو اعتراف بفقدان الهوية والسيطرة على الذات ، فلا بد من الإحساس بالهوية العربية والإسلامية ، وحين تكون لدينا رؤية خاصة تغنيانا عن الآخرين تنكسر حلقة التبعية . وهذه الرؤية ، وهذا الإحساس يحتاج إلى تغيير في التربية وأسلوبها ، وتنمية الشعور بالمسؤولية الفردية والجماعية حتى نسير نحو الأفضل . فإذا تغير ما بنفس الإنسان _ سواء بجهد أو بجهد غيره _ فإن سلوكه لا محالة يتغير . فالشجاعة والجبن ، والإقدام والهزيمة ، كل هذا يتعلق بما في النفس ، فإذا تغير ما بالنفس تغير حالاً سلوك الإنسان . فالتغيير معلق على إرادة الناس ، وليس ثمة مذهب أدبي أو خلقي يمكن أن يذهب إلى أكثر مما ذهب إليه المنهج القرآني في تنبيه ضمير الفرد إلى تبعاته الشخصية ومسؤولياته في تحديد مستقبله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ _ الرعد/ ١١ _ . أما الغرب فلن يقدم لنا إلا ما يكرس فينا التبعية الاقتصادية وغيرها ، لأن هذا هو منطق الأشياء ، والله أعلم .

(١) الطغمة الصهيونية ، ص ٤٥ .

النداء الثامن والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ، أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.﴾

_____المائدة/ ١_____

لقد أقام المنهج القرآني ضوابط لعلاقة الإنسان مع خالقه ، وعلاقة الإنسان مع الناس من الأقربين والأبعدين . وقد حدّدها بدقة كي يكفل لها الاحترام الواجب . هذه الضوابط هي (المصلحة) ما دام أن الله تعالى هو الذي أقامها للناس . ولورأى فرد ، أو رأت مجموعة ، أن المصلحة غيرها ، فالله يعلم والناس لا يعلمون . قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل / ٧٤ .

هذه الضوابط يسميها الله في كتابه العزيز (العقود) ، لذا خاطبهم في هذا النداء قائلاً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله عالماً بكل ما فيه مصلحتكم ، ونبذتم كل ما يدعو إليه الشيطان ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ ، والعقد؛ ما يبرم بين الطرفين من اتفاق أو عهد . والعقود هنا؛ العهود المؤكدة الموثقة التي بينكم وبين الله والناس ، أي ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره ، فهي تشمل عقود الشرع فيما أحل وحرّم وفرض ، وعقود الناس بعضهم مع بعض في البيع والشراء والزواج وغير ذلك . فكل قول أو فعل يعدّه الناس عقداً يجب الوفاء به ما لم يتضمن تحريم حلال أو تحليل حرام مما يثبت في الشرع . وألزم العقود عقد الإيمان بالله ، فهذا العقد يوجب على المؤمن السمع والطاعة والعمل بكتاب الله عزّ وجلّ الذي يشمل كل ما أحل الله وحرّم ، سواء ما يختص منها بكل أمر وكل نهى في شريعة الله ، وما يتعلق بكل المعاملات مع الناس في حدود شرع الله ، فكلها عقود ينادي الله الذين آمنوا أن يوفوا بها ،

ولا يأخذوا مقابل نقضها ثمناً من عرض الدنيا مهما عظم ﴿ ولا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ النحل / ٩٥ . « قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ يعني اليهود ، يعني ما أحل الله وما حرّم ، وما فرض ، وما حدّ في القرآن كله ، ولا تغدروا ، ولا تنكثوا ، ثم شدّد في ذلك فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ الرعد / ٢٥ » ^(١) .

ثم نص النداء على ما يحل وما يحرم من المطعومات فقال تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾ والبهيمة ؛ ما لا نطق له ، وخصها العرف بذوات الأربع من حيوان البر والبحر . والأنعام هي الإبل والبقر والغنم ، والمراد ما يماثلها أيضاً من البهائم الوحشية التي من شأنها أن تصاد كالظباء وبقر الوحش وحمورها ، وسائر الحيوانات الطيبة للأكل ، ما مشى منها على الأرض ، وما طار في الهواء ، وما سبح في البحر . ولما كان هذا الإطلاق يقتضي إحلالها على جميع الوجوه ، وفي سائر الأحوال ، استثنى الله تعالى من ذلك بعض حالات أشار إليها بقوله : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أي إلا أن تتصف البهيمة بأحد الصفات التي تمنع من أكلها . وقد تضمّنتها الآية الثالثة من سورة المائدة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ ، وَالدَّمُ ، وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ ، وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَالْمُنْخَنِقَةُ ، وَالْمَوْقُوذَةُ ، وَالْمُتَرَدِّيَةُ ، وَالنَّطِيحَةُ ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ ، وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ . . ﴾ ^(٢) . أما من اضطر بسبب جوع شديد يخشى الإنسان منه التلف على حياته ، فله أن يأكل من هذه المحرمات مادام غير راغب بمقارفة الحرام ، على أن لا يتجاوز قدر الضرورة لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

ثُمَّ قَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَحَلَّ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ بِشَرْطَيْنِ : الْأَوَّلُ : ﴿ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ ﴾

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ١٣ .

(٢) عرضنا حكم الميتة والدم ولحم الخنزير في النداء (١٨) .

أي حال كونكم غير مستحلين صيدها في الأماكن التي حرم الله صيدها فيها، وهي أرض الحرم، ومتى حُرِّم صيدها فيها فأكلها لا يحل أيضاً.

الشرط الثاني: ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي محرمين بالحج أو العمرة، وإن كنتم خارج حدود الحرم، فيحرم عليكم الصيد والأكل مما صدتم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ فلا محل للاعتراض بوجه من الوجوه في إباحة أكل بهيمة الأنعام، وتحريم أكل الميتة وما في حكمها. فالله يحكم وفق مشيئته، وحسبما يرى من الحكمة والمصلحة، لأنه الحكيم في أمره ونهيه.

ختاماً نقول: «إن الله تعالى دعا المؤمنين وناداهم بوصف الإيمان ليحثهم على امتثال ما يكلفهم به، وطلبهم بالوفاء بالعقود، أي بالتكاليف التي التزموا بها بقبولهم الإيمان الذي يعتبر تعهداً منهم بالعمل بمبادئه والوقوف عند حدوده. ومن هذه التكاليف؛ ما يعقد الناس بعضهم مع بعض من الأمانات والمعاملات..»

ويؤخذ من الآية وجوب الوفاء بالعقود التي يجريها الناس بعضهم مع بعض فيما هو مأذون فيه كالقيام بأداء المهور والنفقات في باب النكاح، والمحافظة على مال المستأمن ونفسه في باب الأمان، والمحافظة على الوديعة والعارية والعين المرهونة وردها إلى أصحابها سالمة، وما أشبه ذلك، ويؤخذ منها أيضاً حل ذبائح الأنعام من جهة الانتفاع بلحومها وجلودها وعظامها وأصوافها، وحرمة الصيد في حال الإحرام..»^(١).

(١) تفسير آيات الأحكام: ٢ ص ١٥٤ و ١٥٦.

نداء التاسع والعشرون: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

المائدة/ ٢ -

نداء الله لمن آمن بالله وأراد معرفة الحلال والحرام والأحكام الإسلامية ، وخاصة في مجال المعاملات والعلاقات الاجتماعية . فخاطبهم قائلا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ ، والشعائر؛ جمع شعيرة ، وهي في الأصل ما جعل شعاراً على الشيء وعلامة عليه . والمراد بالشعائر هنا كما روي عن ابن عباس : مناسك الحج . وقيل : فرائض الله التي حدّها لعباده ، وهو قول عطاء . وقيل : الأحكام الإسلامية كلها ، فإن أدائها إمارة على الإسلام والتعبد بأحكامه ، وهو المعول عليه . « وإحلال الشعائر : استباحتها والإخلال بأحكامها ، وعدم المبالاة بحرمتها ، كاستعمال الطيب ، ولبس المخيط ، والصيد ، والقرب من النساء ، فإن ذلك يخل بواجبات الإحرام ، وكالوقوف بعرفة محدثاً ، فإن ذلك يخل بواجب الطهارة في الطواف . ﴿ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ أي لا تحلّوه بالقتال فيه وعدم المبالاة بحرمته . وقال البعض : فسخ هذا الحكم بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرُمُ فَاقْتُلُوا

المشركين حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»^(١) . وقيل المراد بالشهر الحرام؛ هو شهر رجب الذي كانت تحترمه العرب في الجاهلية . والمتبادر أنه المراد به جنس الشهر الحرام، فيشمل بقية الأشهر الحرم الأربعة، وهي؛ ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وذلك بأن تحلوا لأنفسكم بدء القتال فيه .

﴿ولا الهدي﴾ أي ما يتقرب المرء به من الأنعام ليذبح في الحرم، وهو من النسك .
﴿ولا القلائد﴾، جمع قلادة، وهي تطلق على ما يعلق في عنق المرأة للزينة، وعلى ما يعلق في عنق البعير أو غيره من النعم من جلد أو قشر شجر ليعلم أنه هدي فلا يتعرض له أحد بسوء، وإحلالها؛ بنزعها منه لما يؤدي إليه ذلك من جهل الناس بحقيقته وتعريضه للاعتداء عليه، وذبحه في غير محله .

﴿ولا آمين البيت الحرام﴾، أي ولا تستحلوا قتال الذين يقصدون البيت الحرام من أجل حج أو عمرة . وقيل: المعنى لا تحلوا لأنفسكم ترويع قاصدي البيت الحرام، ولو في غير الشهر الحرام، أو كانوا غير محرمين .

﴿يَتَّبِعُونَ فُضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أي ماداموا مؤمنين بالله مبتغين فضله بالسعي لطلب الرزق ورضوانه بأعمال العبادة .

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي إذا خرجتم من الإحرام أبيع لكم الصيد، وبالطبع يحل أيضاً كل ما كان مباحاً قبل الإحرام .

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ أي لا يجعلكم بغضكم لهم بسبب منعكم عن المسجد الحرام عام الحديبية أن تعتدوا للانتقام منهم . ولا تقابلوهم بمثل عملهم فتصدوهم كما صدوكم، ما داموا قد جاؤوا مؤمنين، إذ الإسلام يجب ما قبله .

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ أي تعاونوا معهم على ما جاؤوا به من رغبة في فضل

(١) تفسير آيات الأحكام: ٢ ص ١٥٦ .

